التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر

السيرة النبوية

الجزء الثامن

تأليف
دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شـارع منشـا - محـرم بك - الإسـكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضـراء للنشر والتوزيـع

حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر
في غزوة حنين
وحصار الطائف

١ - اجتماع الأعداء من هوازن وأحلافها -

قال ابن إسحاق : ولما سمعتْ هوازن برسول الله ﷺ ومافتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النَّصرى ، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كُلها ، واجتمعت نَصْر وجُشَمُ كلها ، وسعد بن بكر ، وناس من بني هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عَيلان إلا هؤلاء ، وغاب منها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب ، ولم يشهدها منهم أحد له اسم ، وفي بني جُشم دُرَيْد بن الصمة شيخ كبير ، ليس فيه شيء إلا التيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخا مجرَّبا ، وفي ثقيف سيدان لهم ، وفي الأحلاف قارب بن الأسود بن مسعود بن مُعتِّب ، وفي بني مالك ذو الخمار سُبيع بن الحارث بن مالك ، وأخوه أحمر بن الحارث ، وجماعُ أمر الناس إلى مالك بن عوف النصْرى .

فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ حطّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة في شجار (١) له يُقَاد به ، فلما نزل قال : بأي واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعمَ مجالُ الخيل ! لاحَزْن ضرْس ، ولاسَهْلٌ دَهس(٢)، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم . قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ، ودُعي له ، فقال : يامالك قد أصبحتَ رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له مابعدَه من الأيام، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، وبُكاء الصغير ، ويُعار

(١) هو بوزن كتاب مركب يشبه الهودج لكنه غير مغطى .

(٢) يعني لاغليظ صلب ولاتراب ناعم تغوص فيه الأقدام .

الشَّاء ؟ قال : سُقْت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ، قال : ولمَ ذلك ؟ قال : أردت أن أجعل خَلْفَ كلّ رجل منهم أهله وماله ، ليُقاتل عنهم، قال : فَانقَضَّ به[١] . ثم قال : راعي ضأن والله ! وهل يَرُدُّ المنهزمَ شيءٌ ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورُمحه ، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك ، ثم قال : مافعلت كعبٌ وكلاب؟ قالوا : لم يشهدها منهم أحد ، قال : غاب الحَدُّ والجدُّ ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولوَددتُ أنكم فعلتم مافعلت كعبٌ وكلابٌ ، فمن شهدها منكم؟ قالوا : عمروُ بن عامر ، وعوف بن عامر ، قال : ذانكَ الجذَعان من عامر ، لاينفعان ولايضران ، يامالك ، إنك لم تصنع بتقديم البَيْضَة بيضة هوازن[٢] إلى نحور الخيل شيئًا ، ارفعْهُم إلى مُتمنَّع بلادهم وعُلْيا قومهم ، ثم الْقَ الصُّباءَ[٣] على مُتُون الخيل فإن كانت لك لَحقَ بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك . قال : والله لا أفعل ذلك إنك قد كبرتَ وكبر عقلك . والله لتطيعُنَّني يامعشر هوازن أو لأتكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . وكره أن يكون لدُرَيْد بن الصمة فيها ذكر أو رأي ، فقالوا : أطعناك ، فقال دُريد بن الصمة : هذا يوم لم أشْهَدْهُ ولم يَفُتْنى :

يالَيتني فيها جَذَعْ ... أخُبُّ فيها وأضَعْ
أقُودُ وَطْفاءَ الزَّمَعْ ... كأنها شاةٌ صَدَعْ

---

(١) يعني زجره وعاب رأيه .

(٢) يعني النساء والذرية التي تحتاج إلى حماية .

(٣) يعني المسلمين ، وكان المشركون يسمونهم بذلك بدعوى خروجهم عن دين قومهم .

قال ابن إسحاق : ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكْسروا جُفُون سيوفكم ، ثم شُدُّوا شَدة رجل واحد [1] .

هذا الذي حصل في تجهيز جيش الأعداء فيه عبرة ، حيث حشدوا معهم نساءهم وذراريهم وأنعامهم ، وكأنما ساقوها لتكون غنيمة للمسلمين، ولقد كان رأي دريد بن الصمة سديدًا حينما أشار بقوة ووضوح إلى الخطأ الذي ارتكبه مالك بن عوف في حشد النساء والذراري والأنعام ، ولكنَّ مالكًا استبدَّ برأيه وأصر عليه فأطاعه قومه وحلفاؤهم .

ولم يكن العرب يعرفون الشورى إلا بنسبة ضئيلة وإنما كانوا يطيعون زعماءهم من غير تفكير أحيانا يطيعونهم حتى لو عرفوا أنهم مخطؤون .

وقد أطاع أفراد هذه القبائل زعيمهم مالك بن عوف طاعة عمياء ، إما بدون تفكير أو مع معرفة خطئه بحمل النساء والذراري والأنعام .

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٨١ - ٨٤ ، وقال الهيثمي : رواه أحمد وأبو يعلى ورواه البزار باختصار ، وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى وبقية ورجال أحمد رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٧٩-١٨٠ ، ورواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٤٨ - ٤٩ - .

٢ - عبرة فيما أصاب جواسيس المشركين -

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : قالوا : وانتهى رسول الله ﷺ إلى حُنين مساءَ ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلون من شوال . وبعث مالكُ بن عوف رجالاً من هَوازن ينظرون إلى محمد وأصحابه - ثلاثة نَفَر - وأمرهم أن يتفرقوا في العسكر . فرجعوا إليه وقد تفرّقت أوصالهم . فقال : ما شأنكم ويلكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضًا على خيل بُلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ماترَى ! وقالوا له : مانُقاتل أهل الأرض ، إن نقاتل إلا أهل السموات - وإنَّ أفئدة عيونه تخفُق - وإن أطعتنا رجعتَ بقومك ، فإنَّ الناس إن رأوا مثل ما رأينا أصابهم مثل الذي أصابنا . قال : أفٍّ لكم ! بل أنتم قومٌ أجبن أهل العسكر ، فحبسهم عنده فرقًا أن يشيع ذلك الرُّعْب في العسكر ، وقال : دُلُّوني على رجل شجاع ، فأجمعوا له على رجل ، فخرج ، ثم رجع إليه وقد أصابه نحو ما أصاب من قبله منهم ، فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيت رجالاً بيضًا على خيل بُلق ، ما يُطاق النظر إليهم ، فو الله ما تماسكتُ أن أصابني ماترى ! فلم يَثْنه ذلك عن وجهه (١) .

في هذا الخبر عبرة لهؤلاء الأعداء المتحزِّبين ضد المسلمين لو كانوا يستفيدون من العبر ، لكن زعيمهم مالك بن عوف قد صمم على الحرب لأمر قد أراده الله تعالى ، وقد كان يدفعه إلى الحرب الحفاظ على سمعته ، لأنه لو تراجع لانحطت سمعته عند القبائل ، كما أنه في اعتقاده أن النبي ﷺ لن يتركهم وقد حزَّبوا الأحزاب ضده وأنه سيقصدهم في

---

(١) مغازي الواقدي ٣/ ٨٩٢ .

بلادهم متفرقين ، فلعله رأى أن مواجهة الجيش الإسلامي وهم مجتمعون أقرب إلى النصر .

وهذا الخبر من الأخبار التي تثبت مشاركة الملائكة مع المسلمين يوم حنين .

* * *

٣ – موقف لابن أبي حدرد الأسلمي في التجسس على الكفار –

قال الواقدي فيما يروي عن شيوخه قالوا : ودعا رسول الله ﷺ ابن أبي حدرد الأسلمي فقال : انطلق فادخل في الناس حتى تأتي بخبر منهم، ومايقول مالك : فخرج عبد الله فطاف في عسكرهم ، ثم انتهى إلى ابن عوف فيجد عنده رؤساءَ هَوازن : فسمعه يقول لأصحابه : إن محمداً لم يُقاتل قطُّ قبل هذه المرّة، وإنما كان يلقى قومًا أغمارًا لاعلم لهم بالحرب فيُنصر عليهم ، فإذا كان في السَّحر فصُفّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم . ثم صفُّوا صفوفكم ، ثم تكون الحملة منكم، واكسروا جُفون سيوفكم فتلقَونه بعشرين ألف سيف مكسور الجَفْن، واحملوا حملةَ رجل واحد . واعلموا أنَّ الغلبة لمن حمل أوّلاً ! فلما وعى ذلك عبد الله بن أبي حَدْرَد رجع إلى النبيّ ﷺ فأخبر بكلّ ماسمع[1] .

في هذا الخبر موقف جرىء لابن أبي حدرد الأسلمي ، حيث غامر بنفسه ودخل في وسط جيش الأعداء إلى أن وصل إلى مركز القيادة، فسمع قائدهم مالك وهو يخطط للهجوم على المسلمين مع فجر اليوم التالي .

وهكذا استطاع بمغامرته ودهائه أن يأتي النبي ﷺ بخطة الأعداء الحربية ، وهو رجل المغامرات المعروف الذي سبق ذكره في سرية الغابة .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٣/ ٨٩٣ ، وأخرجه الحاكم مختصراً ضمن خبر عن حنين وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي – المستدرك ٣/ ٤٨-٤٩ – .

٤ - موقف لأنس الغنوي في حراسة ا لمسلمين -

أخرج الإمام أبو داود من حديث سهل بن الحنْظلية أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنُين، فأطنبوا السير[١] حتى كانت عشيَّة ، فحضرتُ الصلاة عند رسول الله ﷺ ، فجاء رجل فارس، فقال: يارسول الله ، إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فاذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم[٢] بظُعُنهم[٣] ونعَمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » ثم قال: « من يحرسُنا الليلة » ؟ قال أنس بن أبي مرْثد الغنَوي: أنا يارسول الله ، قال « فاركب» فركب فرسًا له ، فجاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « استقبل هذا الشِّعْب حتى تكون في أعلاه ولانُغَرَّنَّ من قبَلك الليلة » فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مُصلاه فركع ركعتين ثم قال: « هل أحسسْتم فارسكم» ؟قالوا: يارسول الله ما أحسسْناه ، فنُوّب بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: « أبشروا فقد جاءكم فارسكم » فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب ، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلم فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشّعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت اطَّلعتُ الشعبين كليهما فنظرت فلم أرَ أحداً ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل نزلت الليلة » ؟

---

(١) أي أسرعوا .

(٢) يعني جميعًا وهو كناية عن كثرة العدد .

(٣) يعني بنسائهم .

قال : لا ، إلا مصليًا أو قاضيًا حاجة ، فقال له رسول الله ﷺ : « قد أوجَبت فلا عليك أن لاتعمل بعدها »[1] .

في هذا الخبر موقف جليل لأنس الغنوي رضي الله عنه حيث وقف طوال الليل يحرس المسلمين فوق الجبل .

ولقد حاز بعمله هذا على إعجاب النبي ﷺ حتى قال : « ماعلى هذا أن لايعمل بعد هذا عملا » وهذا محمول على النوافل التي يكفر الله بها السيئات ، ويرفع بها الدرجات ، والمقصود أنه عمل عملا صالحا كبيرا يكفي لتكفير ما قد يقع منه من سيئات في المستقبل ، ويرفع الله به درجاته في الجنة ، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات .

* * *

---

(١) سنن أبي داود ، رقم ٢٥٠١ ، الجهاد(٣/ ٢٠) وأخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٨٣ ، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر - فتح الباري ٨/ ٢٧ - .

٥ – ابتداء المعركة والمفاجأة[١]– ومثل من شجاعة النبي ﷺ

١ – قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال: لما استقبلنا واديَ حُنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حَطوط[٢]، إنما ننحدر فيه انحدارا، قال: وعماية الصُّبح[٣]، وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا في شعابه وأحنائه ومَضَايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فو الله ماراعنا ونحن منحطون إلا الكتائبُ قد شَدُّوا علينا شدّة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يَلوي أحد على أحد.

وانحاز رسول الله ﷺ ذاتَ اليمين، ثم قال: أين الناس؟ هَلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، قال: فلا شيء، حملت الإبل بعضُها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نَفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته عليٌّ ابن طالب، والعباسُ بن عبد المطلب، وأبو سفيانَ بن الحارث، وابنهُ، والفضلُ بن العباس، وربيعةُ بن الحارث، وأسامةُ بن زيد، وأيمنُ بن عُبيد، قُتل يومئذ[٤].

---

(١) كانت هذه المعركة في اليوم الخامس من شهر شوال من السنة الثامنة – البداية والنهاية ٤/ ٣٢٢–.

(٢) أي شديد الانحدار.

(٣) أي ظلامه.

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ٨٩–٩٠.

=

٢ - وأخرج الإمام مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حُنين . فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ . فلم نفارقهُ. ورسولُ الله ﷺ على بغلة لهُ بيضاء أهداها له فروةُ بن نفاثة الجذامي ، فلما التقى المسلمون والكفار ، ولّى المسلمون مُدبرين . فطفق رسول الله ﷺ يركضُ بغلتهُ قبَلَ الكفار ، قال عباسٌ : وأنا آخذٌ بلجام بغلة رسول الله ﷺ ، أكُفُّها إرادةَ أن لاتُسرع ، وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ « أي عباسُ ناد أصحاب السَّمُرة [1] » . فقال عباس وكان رجلا صيِّتًا ، فقلت بأعلى صوتي : أين أصحابُ السمُرة؟ قال : فو الله لكأنَّ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يالبيك يالبيك قال : فاقتتلوا والكفار ، والدعوةُ في الأنصار ، يقولون : يامعشر الأنصار يامعشر الأنصار قال : ثم قُصرت الدعوةُ على بني الحارث بن الخزرج ، فقالوا : يابني الحارث بن الخزرج يابني الحارث ابن الخزرج ، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمُتطاول عليها إلى قتالهم ، فقال رسولُ الله ﷺ « هذا حين حمى الوطيس [2] » . قال : ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حصيات فرمى بهنَّ وجوه الكفار ، ثم قال : انهزموا ورب محمد ! » قال : فذهبتُ أنظرُ فإذا القتالُ على هيئته فيما أرى ،

= وذكر الحافظ الهيثمي أن هذا الخبر رواه الأئمة أحمد وأبو يعلى والبزار ، قال : وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح مجمع الزوائد ٦/ ١٧٩ - ١٨٠ - .

(١) هي الشجرة التي بايع تحتها الصحابة رسول الله ﷺ يوم الحديبية .

(٢) أي اشتدت الحرب ، تشبيها للحرب بالتنور الذي تسجَّر فيه النار .

قال : فو الله ماهو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حَدَّهم كليلا وأمرهم مُدبرا [١] .

٣ - وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي إسحاق السبيعي قال : جاء رجلٌ إلى البراء فقال : أكنتم ولَّيتم يوم حنين يا أبا عُمارة؟ فقال : أشهدُ على نبيِّ الله ﷺ ما ولَّى ، ولكنهُ انطلق أخفَّاءُ من الناس ، وحُسَّرٌ إلى هذا الحيِّ من هوازن ، وهم قومٌ رماةٌ ، فرموهم برشق من نبل كأنها رجلٌ من جراد [٢] ، فانكشفوا ، فأقبل القومُ إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلتهُ ، فنزل ودعا واستنصر ، وهويقول :

« أنــا النـبيُّ لا كــذب أنــا ابــن عـبد المطلب

اللهم نزِّل نصرك »

قال البراء : كُنا والله إذا احمرَّ البأسُ [٣] نتقي به ، وإن الشجاع منَّا للذي يُحاذي به ، يعني النبي ﷺ [٤] .

٤ - و أخرج الإمامان البزار والطبراني من حديث أبي عبد الرحمن الفهري رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين . . وذكر شيئا من خبرها إلى أن قال : فقال رسول الله ﷺ : ياعباد الله أنا

---

(١) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٧٥ (ص ١٣٩٨) .
وانظر مصنف عبد الرزاق رقم ٩٧٤١ (٥/ ٣٧٩) .
وسيرة ابن هشام ٤/ ٩٣ .

(٢) يعني قطعة عظيمة من الجراد .

(٣) كناية عن شدة الحرب ، والتعبير بالاحمرار من تشبيه الحرب بالنار .

(٤) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٧٦ ، (ص ١٤٠١) .
وانظر صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣١٧ (٨/ ٢٨) .

عبد الله ورسوله ، واقتحم عن فرسه فنزل فأخذ كفًا من حصى ، قال : فحدثني من هو أقرب إليه مني أنه ضرب وجوههم وقال : شاهت الوجوه، فهزم الله المشركين، قال : فحدثني أبناؤهم أن آباءهم قالوا : فما بقي منا يومئذ أحد إلا امتلأت عينه وفمه ترابا ، وسمعنا صلصلة من السماء إلى الأرض كإمرار الحديد على الطست .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجالهما ثقات (١) .

وأخرج الإمام الطبراني من حديث يزيد بن عامر السوائي – وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم – أنه سئل عن الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم يوم حنين كيف كان ! فأخذ حصاة فرمى بها طستا فَطَنَّ ، قال : كنا نجد في أجوافنا مثل هذا .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله ثقات (٢) .

في هذه الأخبار مواقف وعبر منها :

أولا : موقف النبي ﷺ أمام تلك المفاجأة ، حيث كان الأعداء قد سبقوا المسلمين إلى وادي حنين وكمنوا لهم في منعطفاته ، فلما انحدر المسلمون إلى الوادي رماهم المشركون رميًا كثيفا متتابعا ، حتى كأنَّ النبل قطعة عظيمة من الجراد قد ملأت الجو ، ولم يكن بعض الذين في مقدمة جيش المسلمين قد استعدوا بالدروع فانهزموا وحالوا بين بقية الجيش والتقدم إلى الأمام ، لكن النبي ﷺ نزل إلى الوادي واستقر في يمينه ، ثم نزل عن دابته ودعا الله تعالى واستنصره وقال : « اللهم نزِّل نصرك» .

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٨٣ .

ونقف قليلا لنتأمل كيف أن النبي ﷺ لم يشغله هول تلك المفاجأة عن دعاء الله تعالى ، ولم يقم أولاً يعمل الترتيبات اللازمة التي يعملها القادة عادة لتلافي الهزيمة والحصول على النصر ، بل ارتفع فكره قبل كل شيء إلى السماء فدعا الله تعالى واستنصره، ثم قام بنداء الخلَّص من أصحابه ليجتمعوا حول مركز القيادة ، ذلك لأنه ﷺ يعلم أن النصر والهزيمة بيد الله تعالى وحده، وأن تميُّز المسلمين على غيرهم إنما هو بكون الله تعالى معهم بنصره وتأييده، ويخشَى أن يكون وقع من المسلمين خلل يقتضي تخلف نصر الله تعالى إياهم ، فكان دعاء الله تعالى أهم شيء فكر فيه النبي ﷺ .

وقد كان سبب الفشل في غزوة حنين في بداية المعركة أن بعض المسلمين أُعجبوا بكثرتهم فقالوا : لن نغلب اليوم من قلة، ولعل الذين قالوا هذه العبارة من حديثي العهد بالإسلام، فوقع الخلل بسبب تخلف عنصر مهم من عناصر النصر لدى بعض المسلمين، ألا وهو التوكل على الله وحده ، حيث اعتمدوا بعض الشيء على كثرة عددهم وقد بين الله تعالى ذلك بقوله ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة : ٢٥، ٢٦] .

وحينما عاد المسلمون وصدقوا مع الله نصرهم الله تعالى نصرا مؤزرا ، وأثابهم غنائم عظيمة إلى جانب مايُدَّخر لهم من الثواب في الآخرة .

ثانيًا : هذه المعركة تبين بوضوح شجاعة النبي ﷺ الفائقة وثباته الراسخ ، فحينما حدث الهجوم المفاجيء على المسلمين لم ينهزم، بل اختار مكانا من الوادي مناسبا وثبت فيه ، وصار ينادي أصحابه بأن يفيؤوا إليه .

لم يسْتخْف النبي ﷺ بنفسه حتى لايكون عرضة لهجوم الأعداء بل كان ينادي بأعلى صوته يقول :

أنا النبي لاكذب أنا ابن عبد المطلب

وقوله « لاكذب » قال الحافظ ابن حجر : فيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب ، فكأنه قال : أنا النبي ، والنبي لايكذب، فلست بكاذب فيما أقول حتى أنهزم ، وأنا متيقن بأن الذي وعدني الله به من النصر حق فلا يجوز عليَّ الفرار [1] .

ومما يبين شجاعة رسول الله ﷺ الفذة في هذه الأخبار ماجاء في رواية مسلم الأخيرة من قول البراء بن عازب رضي الله عنهما : « كنَّا والله إذا احمرَّ البأس نتَّقي به ، وإن الشجاع منا لَلذي يحاذي به » .

وكذلك قول العباس رضي الله عنه في رواية مسلم الأولى « فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار ، قال وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها إرادة أن لاتسرع » وكان هذا في المرحلة الأولى التي أُفرد فيها النبي ﷺ بقلة من أصحابه .

إن رسول الله ﷺ حينما يقود المعارك بنفسه ويتعرض لبأسها وضراوتها إنما يسنُّ السنة الحسنة للقادة من بعده .

---

(١) فتح الباري ٨/ ٣١ .

إنه لايقود المعارك من أبراج محميَّة وهو لايدري عما يدور من تفاصيل المعركة فيُصدر الأوامر على غير هدى . بل كان ﷺ يتقدم مع أصحابه ويُنظم الصفوف ويتفقد جيشه ، فإذا أصيب الجيش بشيء من الخلل فتفرق ثبت في مركز القيادة ونادى بالناس ليجتمعوا إليه كما في هذه الغزوة وما سبق بيانه في غزوة أحد .

ثالثًا : جرت في هذه المعركة مواقف للصحابة رضي الله عنهم في الثبات والجهاد ، فمن ذلك موقف القلة الذين ثبتوا مع النبي ﷺ في المرحلة الأولى من المعركة وهم بعض الذين كانوا قريبين منه أثناء هجوم الأعداء ، وكذلك الذين استجابوا لنداء الرسول ﷺ الذي ألقاه إلى عمه العباس رضي الله عنه لكونه جهوري الصوت ، وقد جاء في حديث العباس المذكور وصف عودتهم بالسرعة الشديدة ، وذلك لما علموا بمكان النبي ﷺ ، وعلى هؤلاء والذين ثبتوا مع النبي ﷺ دارت رحى الحرب في مرحلتها الثانية التي انتهت بانهزام الأعداء وانتصار المسلمين .

رابعًا : في رمي الرسول ﷺ الأعداء بالحصيات ثم إدبار أمرهم بعد ذلك عبرة عظيمة ، وقد قال الله تعالى عن مثل ذلك يوم بدر ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [**الأنفال** : ١٧] فالله تعالى هو الذي رمى الأعداء بواسطة رسوله ﷺ فانهزموا ، وهذا نوع من نصر الله تعالى للمؤمنين في تلك المعركة ، فإن تلك القبضة من التراب أصابت جميع الأعداء كما جاء في الرواية الأخيرة عن الذين شهدوا المعركة منهم أنهم قالوا : فما بقي منا يومئذ أحد إلا امتلأت عينه وفمه ترابا .

كما أن الله تعالى أصاب المشركين بالرعب الذي وجدوه في أجوافهم كصوت الحصاة يُرمَى بها الطست ، كما جاء في الرواية الأخيرة.

وذلك من نصر الله تعالى لأوليائه المؤمنين ، وفي ذلك عبرة للمسلمين في كل زمن إذا نصروا الله جل وعلا ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [**محمد** : ٧] .

ومما يلاحظ أن النبي ﷺ رمى الكفار بالحصيات بعد عودة المسلمين إلى المعركة واحتدامها بينهم ، وذلك يشير إلى أنه ليس من سنة الله تعالى أن ينصر المسلمين بخوارق العادات من غير أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا جهدهم في قتال الأعداء ، فإذا حققوا الأسباب التي شرعها الله تعالى وجعلها وسائل لتحقيق النصر فإن شاء الله جل وعلا أكرمهم بالنصر بخوارق العادات .

* * *

٦ - موقفان جهاديان لعلي وأبي دجانة -

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن ابن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال: بينا ذلك الرجل من هوازن صاحبُ الراية على جمله يصنع ما يصنع، إذ هَوَى له عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه ورجل من الأنصار يريدانه، قال: فيأتيه عليّ بن أبي طالب من خلفه، فضرب عُرْقُوبَي الجمل، فوقع على عجزه، ووثب الأنصاري على الرجل، فضربه ضربة أطن قَدَمَه بنصف ساقه، فانجعف عن رحله، قال: واجْتَلد الناس، فو الله مارجعتْ راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتَّفين عند رسول الله ﷺ[1].

وأخرجه الواقدي بنحوه وذكر أن الأنصاري الذي كان مع علي هو أبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنهما[2].

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الأئمة أحمد وأبي يعلى والبزار من طريق ابن إسحاق وقال: وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية أبي يعلى وبقية رجال أحمد رجال الصحيح[3].

في هذا الخبر موقف جهادي لعليّ بن أبي طالب وأبي دجانة رضي الله عنهما حيث خلَّصا المسلمين من أذى ذلك القائد الذي يفتك بالمسلمين ويقود طائفة من جيش الأعداء، والقضاء على القائد يعني ارتباك الجنود من خلفه وتفرقهم، فيسهل القضاء عليهم متفرقين.

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٩٤.

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٠٢.

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ١٧٩ - ١٨٠.

والوصول إلى القادة يكلف من سيهاجمهم جهدا كبيرا لأنهم عادة يكونون محميين من خلفهم ومن جوانبهم ، فالهجوم عليهم يعتبر نوعا من المغامرة ، ولقد غامر هذان البطلان بأنفسهما حتى وصلا إلى ذلك القائد فقضيا عليه .

* * *

٧ – موقف جهادي لأبي قتادة ودفاع عن الحق من أبي بكر –

أخرج الإمام البخاري من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال « لما كان يوم حُنين نظرتُ إلى رجل من المسلمين يقاتلُ رجلاً من المشركين، وآخرُ من المشركين يختله من ورائه ليقتله، فأسرعتُ إلى الذي يختله، فرفع يده ليضربني، وأضربُ يده فقطعتها، ثم أخذني فضمني ضمًّا شديدًا حتى تخوفتُ، ثم برك فتحلل، ودفعته ثم قتلتهُ، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلتُ له: ماشأنُ الناس؟ فقال: أمر الله. ثم تراجع الناسُ إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: من أقام بيِّنة على قتيل قتلهُ فله سلبه. فقمتُ لألتمس بيِّنة على قتيلي، فلم أر أحدًا يشهدُ لي، فجلستُ. ثم بدا لي فذكرت أمره لرسول الله ﷺ، فقال رجلٌ من جُلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكرُ عندي، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا، لايُعطه أصيبغ من قريش (١)، ويدعَ أسَدًا من أُسد الله يُقاتل عن الله ورسوله. قال فقام رسولُ الله ﷺ فأداهُ إليّ، فاشتريت منه خرافًا (٢)، فكانَ أول مال تأثلتُهُ في الإسلام(٣).

---

(١) رُوي بالصاد والغين وهو نوع من الطير أو نبات ضعيف، ورُوي بالضاد والعين تصغير الضبع على غير قياس، وعلى كلا الروايتين فهو تعبير عن الضعف والمهانة (فتح الباري٨/ ٤١).

(٢) أي بستانا من النخل.

(٣) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٣٢٢ (٨/ ٣٦).

وأخرجه الواقدي وذكره نحوه – مغازي الواقدي ٣/ ٩٠٨ – ٩٠٩ –.

في هذا الخبر موقفان :

أولهما : لأبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه الذي أنقذ ذلك الرجل المسلم وقتل ذلك الكافر الذي كان يريد قتله بعد جهد كبير .

وثانيهما لأبكر الصديق رضي الله عنه حيث دافع عن أبي قتادة مع أنه ليس من قومه ، وعنَّف ذلك الرجل الذي يريد أخذ حق أبي قتادة مع أنه من قوم أبي بكر ، وهذا يبين لنا رسوخ إيمان أبي بكر وعمق يقينه حيث اعتبر رابطة الدين فوق أي رابطة .

* * *

٨ - مثل من عفو النبي ﷺ و حلمه -
(خبر شيبة بن عثمان الحجبي)

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : وذكر ابن سعد عن شيبة بن عُثمان الحَجَبي . قال : لما كان عامُ الفتح . دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة، قلت : أسيرُ مع قريش إلى هوازن بحُنين . فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرَّة . فأثأر منه ، فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول : لو لم يبقَ من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدًا ، ماتبعته أبدًا .

وكنت مُرْصدًا لما خرجتُ له لايزدادُ الأمر في نفسي إلا قوةً ، فلما اختلط الناسُ ، اقتحم رسولُ الله ﷺ عن بغلته ، فأصْلَتُّ السيف ، فدنوت أريدُ ما أريدُ منه ، ورفعتُ سيفي حتى كدتُ أشعره إياه . فرُفع لي شواظٌ من نار كالبرق كاد يمحشُني ، فوضعتُ يدي على بصري خوفًا عليه ، فالتفتَ إليَّ رسول الله ﷺ ، فناداني : « ياشَيْب ادْنُ منِّي» فَدَنوت منهُ ، فمسَحَ صدْري ، ثم قال : « اللهم أعذهُ من الشيطان» قال : فو الله لهو كان ساعتئذ أحبَّ إليَّ من سمعي . وبصري ، ونفسي ، وأذهب الله ما كان في نفسي ، ثم قال : « ادن فقاتل» .

فتقدمت أمامه أضرب بسيفي ، الله يعلمُ أني أحب أن أقيه بنفسي كلَّ شيء ، ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيًا لأوقعتُ به السيف ، فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون ، فكرُّوا كرةَ رجل واحد، وقُرِّبتْ بغلة رسول الله ﷺ ، فاستوى عليها ، وخرج في أثرهم حتى تفرَّقوا في كلِّ وجه ، ورجع إلى معسكره، فدخل خباءه، فدخلت

عليه ، مادخل عليه أحدٌ غيري حبًا لرؤية وجهه ، وسروراً به ، فقال : «ياشيْبَ الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك» ، ثم حدثني بكلِّ ما أضمرت في نفسي مالم أكن أذكره لأحد قط ، قال : فقلت : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسولُ الله ، ثم قلت : استغفر لي ، فقال : «غفر الله لك »[1] .

وهكذا أطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما أضمره له شيبة بن عثمان الحجبي من إرادة الفتك به وحماه ﷺ منه بملائكته ، فلما انكشف أمره ووقع بين يديه لم يعاقبه ولم يعنِّفه وإنما قصد هدايته من الضلال فمسح بيده على صدره ودعا له ، فتحوَّل شيبة في لحظة من مبغض حاقد بلغ به الغيظ من النبي ﷺ إلى محاولة الإقدام على قتله . . تحوَّل إلى محب للنبي ﷺ حبا يفوق حب نفسه ، وبعد أن كان يتصيد الفرص للفتك به أصبح يقاتل بين يديه ويقيه بنفسه .

وهذا مثل مما تُنتجه الهداية إلى الدين الحق من تحوُّل جذري في السلوك والفكر .

هذا التحول من محاولة طمس مصدر النور الذي أضاء الدنيا كلها إلى بذل كل الجهد في حماية ذلك المصدر كان من أهم دوافعه ما جُبل عليه رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق .

* * *

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٤٧٠ .

وذكره الحافظ ابن حجر وعزاه إلى ابن أبي خيثمة وابن إسحاق والبغوي - الإصابة ٢/ ١٥٧ ، رقم ٣٩٤٥ - .

٩ – بعث أبي عامر الأشعري إلى المنهزمين في أوطاس –

أخرج الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال « لما فرغ النبي ﷺ من حُنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دُريد بن الصمة ، فقُتل دُريدٌ ، وهزم الله أصحابه . قال أبو موسى : وبعثني مع أبي عامر ، فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه جُشميٌّ بسهم فأثبتهُ في رُكبته . فانتهيتُ إليه فقلتُ : ياعمِّ من رماك ؟ فأشار إلى أبي موسى فقال : ذاك قاتلي الذي رماني ، فقصدتُ له ، فلحقته ، فلما رآني ولَّى ، فأتبعتهُ وجعلت أقولُ له : ألا تستحي ، ألا تثبت فكفَّ . فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلتهُ ، ثم قلت لأبي عامر : قتل الله صاحبك . قال : فانزع هذا السهم ، فنزعتهُ فنزا منه الماء .

قال : ياابن أخي ، أقرىء النبي ﷺ السلام وقل له : استغفر لي . واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات . فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته علي سرير مُرمل [١] ، وعليه فراشٌ قد أثر رمالُ السرير بظهره وجنبيه ، فأخبرتهُ بخبرنا وخبر أبي عامر وقال : قل له استغفر لي ، فدعا بماء فتوضأ ، ثم رفع يديه فقال : اللهم اغفر لعُبَيد أبي عامر ، ورأيتُ بياض إبطيه . ثم قال : اللهم اجعلهُ يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس ، فقلتُ : وليْ فاستغفر ، فقال : اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مُدخلاً كريما .

قال أبو بردة[٢] : إحداهما لأبي عامر ، والأخرَى لأبي موسى »[٣] .

---

(١) أي معمول بالرمال وهي حبال الحصر .

(٢) أبو بردة هو ابن أبي موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه .

(٣) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٢٣ ، (٨/ ٤١ - ٤٢) .

في هذا الخبر بيان أن بعض المنهزمين من جيش الأعداء اجتمعوا في أوطاس وهو قريب من حنين ، وقد جاء ذكر دريد بن الصمة وأنهم أصحابه ، وهذا يعني أن الذين اجتمعوا هم بنو جُشَم وقد يكون معهم من غيرهم ، وقد هزم الله الأعداء وقُتل دريد وهو شيخ كبير لم يصحبوه معهم إلا لرأيه وخبرته الحربية كما سبق .

وفي هذا الخبر موقف لأبي موسى الأشعري حيث تبارز مع قاتل أبي عامر الأشعري فقتله .

وفيه خبر عن زهد النبي ﷺ حيث كان ينام على سرير من خوص النخل المعمول بالحبال وقد أثرت الحبال في ظهره وجنبيه حيث نام عليه بدون فراش .

* * *

١٠ - مواقف جهادية في حصار الطائف -

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : ولما قدم فَلُّ ثقيف الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال .

ثم قال - بعد أن ذكر مسير النبي ﷺ من حنين - ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريبا من الطائف ، فضرب به عسكره ، فقُتل به ناس من أصحابه بالنبل ، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف فكانت النبل تنالهم ، ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم ، أغلقوا دونهم ، فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم ، فحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة .

ثم قال : حتى إذا كان يوم الشَّدخة[١] عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة[٢] . ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكَك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها ، فرمَتْهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالا ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون .

ثم قال : وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو محاصر ثقيفًا : يا أبا بكر إني رأيت أني أهْديَتْ لي قَعْبة[٣] مملوءة زُبدا فنقرها ديك فهراق مافيها ، فقال أبو بكر : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد ، فقال رسول الله ﷺ وأنا لا أرى ذلك .

---

(١) سمي بذلك حيث أصيب به بعض المسلمين .

(٢) هي آلة تصنع من الجلود والخشب يدخل فيها الرجال فيدفعونها نحو الحصون ويتقون بها من سهام العدو (لسان العرب / مادة دب) .

(٣) أي إناء كبير .

ثم ذكر أمر النبي ﷺ بالرحيل [1] .

وقال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى فيما روى عن شيوخه : فنصب النبي ﷺ المنجنيق ، قال : وشاور رسول الله ﷺ أصحابه فقال سلمان الفارسي : يارسول الله أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم ، فإنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون وتنصب علينا ، فنصيب من عدونا ويصيب منا بالمنجنيق ، وإن لم يكن المنجنيق طال الثواء ، فأمره رسول الله ﷺ فعمل منجنيقًا بيده ، فنصبه على حصن الطائف . . إلى أن قال : ودخل المسلمون تحت الدبابة وهي من جلود البقر [2] .

وأخرج الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : لقد بعث رسول الله ﷺ يوم الطائف حنظلة بن الربيع إلى أهل الطائف فكلمهم ، فاحتملوه ليدخلوه حصنهم ، فقال رسول الله ﷺ : « من لهؤلاء ؟ وله مثل أجر غزاتنا هذه» فلم يقم إلا العباس بن عبد المطلب ، حتى أدركه في أيديهم قد كادوا أن يدخلوه الحصن ، فاحتضنه العباس - وكان رجلا شديدًا - فاختطفه من أيديهم ، وأمطروا على العباس الحجارة من الحصن ، فجعل النبي ﷺ يدعو له حتى انتهى به إلى النبي ﷺ .

ذكره العلامة علاء الدين علي المتقي الهندي[3] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٤٢ - ١٥٠ ، وانظر مغازي الواقدي ٣/ ٩٢٢ - ٩٣٧ .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٢٧ .

(٣) كنز العمال ١٠/ ٣٦١ - ٣٦٢ .

في هذه الأخبار مواقف منها :

أولا : اهتمام النبي ﷺ بالاستفادة من الوسائل الحربية المتاحة في عصره، فقد جاء في هذا الخبر ذكر استعمال المنجنيق في حصار أهل الطائف، وهذه أول مرة يستعمل فيها المنجنيق في الإسلام، وفي هذا تعليم للصحابة رضي الله عنهم ولسائر الأمة بأن يبادروا إلى تعلم الصناعات الحربية وإعداد الأسلحة المناسبة للعصر .

ثانيًا : موقف جهادي كبير لأولئك الفدائيين الذين زحفوا إلى حصن العدو داخل الدبابة، فهذا موقف يغلب على الظن فيه الهلاك، ولكنه في نظر المؤمنين المتقين موطن من مواطن الشهادة ، فلا غرابة في أن يسارع هؤلاء الصحابة إلى هذا العمل الجهادي الذي يتردد الأمر فيه بين نصر كبير للمسلمين أو استشهاد في سبيل الله تعالى .

ثالثًا : أنْهَى النبي ﷺ الحصار عن الطائف فجأة مع أنه كان يستطيع أن يبقى مدة طويلة في حصار أهله من غير أن يخشى من نقص في المُؤَن ولا من مساعدة لأعدائه من خارج حصنهم، وهم أعجز من أن يخرجوا للقتال، وإذا طال عليهم الحصار فإن المتعارف عليه حربيّا أن يسلِّم المحاصَرون خشية نفاذ المؤن عندهم، إضافة إلى أنه كان بإمكان النبي ﷺ أن يستخدم عددًا من المجانيق في رمي ذلك الحصن، فهو الأقوى من الناحية المعنوية والمادية، ومع ذلك فكَّ الحصار لأنه فهم من الرؤيا التي رآها أن الله تعالى لم يأذن له في فتح الطائف في ذلك الحصار ، فاستسلم لأمر الله جل وعلا وأمر أصحابه بالرحيل .

وهذا يدلنا على عظمة النبي ﷺ في توحيده لله تعالى والتقيد بأمره

والتجرد من حظ النفس ، ذلك لأن تراجع القائد عن القتال يعتبر منقصة وإساءة لسمعته عند أنصاره وأعدائه ، خصوصًا إذا كان هو الأقوى ، لكن النبي ﷺ لم يبال بما يترتب على هذا الأمر من تساؤل وانتقاد ، لأنه بتصرفه هذا ينفِّذ أمر الله جل وعلا ، وفي هذا تربية عالية لقادة الحروب من هذه الأمة ، وذلك بأن يجعلوا نُصب أعينهم تطبيق شريعة الله جل وعلا مهما كلفهم ذلك من نتائج .

رابعًا : في الخبر الأخير موقف جليل للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه حيث أنقذ حنظلة بن الربيع الأسَيِّدي التميمي رضي الله عنه من أيدي الكفار ، ولقد كان في موقفه هذا مغامرة جريئة مما يدل على شجاعته وإقدامه ، كما يدل موقفه هذا على قوة إيمانه حيث أقدم على عمل خطير يترتب عليه الهلاك غالبًا ابتغاء رضوان الله جل وعلا وثوابه الجزيل .

* * *

١١ – نماذج من عدالة النبي ﷺ وورعه –

١ – أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري: أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ ممن شهد معه حنينا قال: والله إني لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي وفي رجلي نعل غليظة، إذ زحمَتْ ناقتي ناقةَ رسول الله ﷺ، ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله ﷺ فأوجعه، قال: فقرع قدمي بالسوط وقال: أوجعتني فتأخَّرْ عني، فانصرفت فلما كان من الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني، قال: قلت: هذا والله لما كنت أصبت من رجْل رسول الله ﷺ بالأمس، قال: فجئته وأنا أتوقع، فقال لي: إنك قد أصبت رجلي بالأمس فأوجعتني فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوضك عنها، فأعطاني ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني[1].

٢ – قال الواقدي في سياق رواية له:

وكان عبد الله بن أبي حَدرد الأسلمي يقول: كنت مع النبي ﷺ في مسيره وهو يُحادثني. فجعلت ناقتي تلصق بناقته، وكانت ناقتي ناقة شهمة، فجعلت أريد أن أنحّيها فلا تُطاوعني، فلصقت بناقة النبي ﷺ وأصيبت رجلهُ فقال: أخْ! أوجعتني! فرفع رجله من الغرز كأنها جُمَّارة[2]، ودفع رجلي بمحجن في يده. فمكث ساعة لايتحدث، فو الله مانزلتُ حتى ظننت أن سينزل فيَّ عذابٌ.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٩٣.

(٢) الجمارة أصل عذق النخل وهي بيضاء والمقصود وصف رجله بالبياض.

قال : فلما نزلنا قلتُ لأصحابي : إنّي أرعى لكم ! ولم يكن ذلك يوم رعيتي ، فلما أرحتُ الظهر عليهم قلت : هل جاء أحدٌ يبغيني؟ فقالوا : رسول الله ﷺ جاء يبغيك ، فقلت في نفسي : هي والله هي! قلت : من جاء ؟ قالوا رجلٌ من الأنصار . قال : فكان أكره إلي ، وذلك أنّ الأنصار كانت فيهم علينا غلظة .

قال : ثم جاء بعدُ رجلٌ من قريش يبتغيني . قال : فخرجتُ خائفًا حتى واجهتُ رسولَ الله ﷺ ، فجعل يبتسم في وجهي وقال : أوجعتك بمحجني البارحة . ثم قال : خُذْ هذه القطعة من الغَنَم . قال : فأخذتها فوجدتها ثمانين شاةً ضائنة [1] [2] .

٣ - قال الواقدي في سياق رواية له : وكان أبو زرعة الجُهني يقول : لما أراد ﷺ أن يركب من قَرْن راحلتَه القصواء وطئتُ له على يديها . والزِّمام في يدي مطوىّ ، فركب على الرَّحل وناولته الزمام . ودرْتُ من خلفه فخلف الناقة بالسوط ، كل ذلك يُصيبني . فالتفت إليّ فقال : أصابك السَّوطُ ؟ قلت : نعم بأبي وأُمّي ! قال : فلما نزل الجعرانة إذا ربضةٌ [3] من الغنم ناحيةً من الغنائم ، فسأل عنها صاحب الغنائم فخبره عنها بشيء لا أحفظه ، ثم صاح : أين أبو زرعة ؟ قال : قلت : ها أنا ذا! قال : خُذ هذه الغَنَم بالذي أصابك من السَّوط أمس ، قال : فعددتها فوجدتها عشرين ومائة رأس ، قال : فتأثَّلتُ بها مالاً [4] .

---

(١) أي ذات صوف .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٣٩ - ٩٤٠ .

(٣) أي مجموعة .

(٤) مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٠ .

هذه الأمثلة الثلاثة تبين لنا عدل النبي ﷺ وورعه وتحرِّيه الشديد في حقوق الناس ، فبالرغم من أن الإصابة التي أصاب كل واحد منهم بها تعتبر طفيفة وبسيطة فإنه لم ينس ذلك ، بل أعطى كل واحد منهم عطية كبيرة من خُمُس الغنيمة لئلا يخرج من الدنيا وعليه حق لأحد .

ولقد كان ماجرى منه ﷺ في حق الأول والثاني إنما كان مقابل ماجرى منهما من خطأ في حقه ، ولذلك كان كل واحد منهما يخشى أن ينزل فيه شيء بسبب ذلك ، فالأمر إصابة مقابل إصابة، ولكن لما كان الأمر بالنسبة لهما من قبيل الخطأ ، وهو منه ﷺ تعمد على سبيل التنبيه خشي أن يلحق ذمته شيء من ذلك فأعطاهم ما أعطاهم لتبرأ ذمته من حقوقهم .

* * *

١٢ - مثل من وفاء النبي ﷺ -

قال الواقدي في سياق رواية له : وقال سراقة بن جُعْشُم : لقيت رسول الله ﷺ وهو منحدرٌ من الطائف إلى الجعرانة فتحصَّلتُ[١] ، والناس يمضون أمامه أرْسالاً[٢] فوقعت في مقْنَب[٣] من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعوني بالرِّماح ويقولون : إليك ! إليك! ماأنت؟ وأنكروني . حتى إذا دنوت وعرفت أنه يسمع صوتي أخذت الكتاب الذي كتب أبو بكر ، فجعلته بين إصبعين من أصابعي ، ثم رفعتُ يدي وناديتُ : أنا سراقة بن جُعْشُم . وهذا كتابي ! فقال رسول الله ﷺ : يوم وفاء ، أدنوه ! فأُدْنيت منه فكأني أنظر إلى ساق رسول الله ﷺ في غرزه كأنها جُمارة[٤]، فلما انتهيتُ إليه سلَّمت . وسقتُ إليه الصَّدقة، فما ذكرت شيئًا أسأله عنه إلا أنِّي قلت : يارسول الله أرأيت الضالَّة من الإبل تَغشى حياضي وقد ملأتها لإبلي ، هل لي من أجر إن أسقيتُها؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم في كل ذات كبد حَرَّى أجرٌ[٥] .

هذا هو الكتاب الذي كتبه أبو بكر رضي الله عنه لسراقة بن مالك بن جعشم يوم الهجرة ، حينما لحق برسول الله ﷺ فدعا عليه فساخت فرسه في الأرض ، فعلم أن النبي ﷺ سينتصر فطلب منه كتاب أمان فكتب له

---

(١) أي ثبتُّ ووقفت .

(٢) أي أفواجا يتبع بعضهم بعضا .

(٣) أي مجموعة مابين الثلاثين إلى الأربعين .

(٤) الجمارة أصل عذق النخل وهي بيضاء ، والمقصود وصف رجله بالبياض .

(٥) مغازي الواقدي ٣/ ٩٤١ ، وأخرجه الإمام عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده بنحوه-٢/ ٤٠١ ، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده مختصرا - ٤/ ١٧٥- .

أبو بكر ذلك الكتاب ، ومازال محتفظًا به حتى يوم الفتح ، وقد عرفه النبي ﷺ فقرَّبه إليه ووفَّى له بالأمان الذي أعطاه إياه .

تُرى ماذا كان شعور سراقة وهو يقارن بين الصورتين ؟ ! صورته وهو يلاحق رسول الله ﷺ يريد أن يقبض عليه ويسلِّمه لقريش ، وصورته وهو يحاول الوصول إلى رسول الله ﷺ والصحابة يَمَسُّونه برماحهم مسًّا خفيفا لأنهم أنكروه ، حتى وصل إليه من بين تلك الجحافل العظيمة بجهد جهيد !! .

لاشك أنه سيحمد ذلك اليوم الذي كف فيه عن رسول الله ﷺ وطلب منه الأمان .

ومادام قد رأى هذا الموقف العظيم الذي احتاج فيه لإبراز كتاب الأمان فإنه موقن ببشرى النبي ﷺ له بأنه يلبس سوارَيْ كسرى ، وقد دارت الأيام دورتها ولبسهما كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

* * *

١٣ – مثل من رحمة النبي ﷺ –

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : وانتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ، والسَّبْي والغنائم بها مَحبوسة ، وقد اتخذ السَّبْيُ حَظائر يستظلون بها من الشمس ، فلما نظر رسول الله ﷺ إلى تلك الحظائر سأل عنها فقالوا : يارسول الله ، هذا سَبْي هوازن استظلوا من الشمس ، وكان السَّبْي ستَّةَ آلاف ، وكانت الإبل أربعةً وعشرين ألف بعير ، وكانت الغَنَم لايُدْرَى عددها ، قد قالوا أربعين ألفا وأقلّ وأكثر ، فلما قدم رسول الله ﷺ أمَرَ بُسْر بن سُفيان الخزاعي يقدم مكة فيشتري للسَّبْي ثيابًا يكسوها ، ثياب المعقَّد[1] ، فلا يخرج المرءُ منهم إلا كاسيًا ، فاشترى بُسْر كسوة فكسا السَّبْي كلَّهم[2] .

هذا مثل من رحمة النبي ﷺ بالأسرى وقد كان يأمر أصحابه بالإحسان إليهم ، بينما كانوا يعاملون في عصره بالإساءة والاحتقار ، وهذا مثل مما تميز به المسلمون عن غيرهم في المعاملة ، حتى إن بعضهم يُرَدُّ إلى أهله حسب الاتفاق فيأبى أن يرجع إليهم .

* * *

(١) نوع من الثياب يجلب من هجر .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٣ .

١٤ - نماذج من منهج النبي ﷺ في الدعوة -

١ - قال الواقدي في سياق رواية له : وبدأ[١] بالأموال فَقَسَمها ، وأعطى المُؤلَّفة قُلوبهم أول الناس . وكان رسول الله ﷺ قد غَنم فضة كثيرةً ، أربعة آلاف أوقية ، فجُمعت الغنائم بين يدي النبي ﷺ ، فجاءَ أبو سفيان بن حرب وبين يديه الفضة ، فقال : يارسول الله ، أصبحت أكثر قُريش مالاً ! فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال : أعطني من هذا المال يارسول الله ! قال : يابلال ، زن لأبي سفيان أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : ابني يزيد أعطه ! قال رسول الله ﷺ : زنوا ليزيد أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : ابني معاوية ، يارسول الله ! قال : زن له يابلال أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : إنك الكريم ، فداك أبي وأمي ، ولقد حاربتُك فنعم المحاربُ كنتَ ، ثم سالمتُك فنعم المُسالمُ أنت . جزاك الله خيرًا ![٢] .

٢ - قال الواقدي : حدثني معمر . عن الزهري . عن سعيد بن المسيب . وعروة بن الزبير ، قالا : حدثنا حكيم بن حزام قال : سألت رسول الله ﷺ بحُنين مائةً من الإبل فأعطانيها ، ثم سألته مائةً فأعطانيها ، ثم سألته مائةً فأعطانيها ، ثم قال رسول الله ﷺ : ياحكيم ابن حزام ، إنَّ هذا المال خَضِرةٌ حُلوةٌ . فمن أخذه بسَخاوة نفس بُورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولايشبع ، واليد

---

(١) يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٤ - ٩٤٥ .

العليا خيرٌ من السفلى ، وابدأ بمن تعول! قال : فكان حكيم يقول : والذي بعثك بالحقِّ ، لا أرزأ[1] أحداً بعدك شيئًا ! فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعوه إلى عطائه فيأبى يأخذه ، فيقول عمر : أيها الناس ، إني أُشهدكم على حكيم أني أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه .

قال : حدثنا ابن أبي الزناد قال : أخذ حكيم المائة الأولى ثم ترك[2] .

٣ - قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي : أن قائلا قال لرسول الله ﷺ من أصحابه : يارسول الله ، أعطيت عُيينة بن حصن والأقرع ابن حابس مئةً مئة ، وتركت جُعَيل بن سُراقة الضَّمْري ! فقال رسول الله ﷺ : أما والذي نفس محمد بيده لجُعيل بن سُراقة خيرٌ من طلاع الأرض[3] كلهم مثل عُيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، ولكني تألفتهما ليُسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه[4] .

هذه الأخبار وأمثالها تبين منهجا من مناهج رسول الله ﷺ في الدعوة ، وهو أنه كان يتألف الكفار إلى الإسلام بالمال وخاصةً سادتهم وأشرافهم الذين لهم أتباع يأخذون برأيهم ، وذلك أن هؤلاء الكبار إذا أسلموا أسلم أتباعهم ، فلذلك أعطى عدداً من زعماء أهل مكة وبعض

---

(١) أي لا أطلب أحدا .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٥ .

(٣) يعني مايملؤها حتى يطلع عنها ويسيل .

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ١٧١ - ١٧٢ .

وأخرجه الواقدي وذكر مثله - مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٨ .

القبائل ، ولقد كان لهذه العطايا أثر في إسلام بعضهم كما سبق في خبر إسلام صفوان بن أمية ، وفي ثباتهم على الإسلام كما في خبر أبي سفيان وحكيم بن حزام .

وفي الخبر الأخير إشارة إلى أنه ﷺ أعطى من أعطى ليتألفه إلى الإسلام وأنه وكل المؤمنين الصادقين إلى إسلامهم .

* * *

١٥ - مثل من أخلاق النبي ﷺ وورع الصحابة -

قال ابن إسحاق : ولما فرغ رسول الله ﷺ من ردِّ سبايا حُنين إلى أهلها ، ركب واتبعه الناس يقولون : يارسول الله ، اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم ، حتى ألجؤوه إلى شجرة ، فاختطفت عنه رداءه، فقال: أدُّوا عليّ ردائي أيها الناس ، فو الله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولاكذابا ، ثم قام إلى جنب بعير ، فأخذ وبرَة من سنامه ، فجعلها بين أُصبعيه ، ثم رفعها ، ثم قال : أيها الناس ، والله مالي من فيئكم ولاهذه الوبرة إلا الخُمس ، والخُمس مردود عليكم فأدُّوا الخياط والمخيط ، فإنّ الغلول يكون على أهله عارًا ونارا وشنارا [١] يوم القيامة . قال : فجاء رجل من الأنصار بكبة من خُيوط شعر [٢] ، فقال : يارسول الله ، أخذت هذه الكبة أعملُ بها برْذعة بعير لي دبر [٣] ، فقال : أما نصيبي منها فلك ! قال : أمّا إذا بلغتْ هذا فلا حاجة لي بها ، ثم طرحها من يده [٤] .

قال ابن هشام : وذكر زيد بن أسلم ، عن أبيه : أن عقيل بن أبي طالب دخل يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة بن ربيعة ، وسيفه

---

(١) الشنار أقبح العيب .

(٢) الكبَّة اللفيفة من الخيوط .

(٣) أي ليصلح بها رحل بعيره الذي اصابته الدبرة وهي القروح .

(٤) وأخرجه الإمام أحمد بإسنادين ، ذكره الهيثمي وقال : ورجال أحد إسنادَيه ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٨٧ - ١٨٨ - .

وأخرجه الإمام البخاري مختصرا - صحيح البخاري ، رقم٣١٤٨، كتاب فرض الخمس(٦/ ٢٥١) - .

متلطخ دما ، فقالت : إني قد عرفت أنك قد قاتلت ، فماذا أصبت من غنائم المشركين ؟ فقال : دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع مُنادي رسول الله ﷺ يقول : من أخذ شيئًا فليردّه ، حتى الخياط والمخيط . فرجع عقيل ، فقال : ماأرى إبرتك إلا قد ذهبت ، فأخذها ، فألقاها في الغنائم[1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : حلم النبي ﷺ على أولئك الذين ألحُّوا عليه بقسمة الفيء حتى ألجؤوه إلى تلك الشجرة التي خطفت رداءه فلم يغضب عليهم وإنما أجابهم بتلك الكلمات البليغة « فو الله أنْ لو كان لكم بعدد شجر تهامة نَعَمًا لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلا ولاجبانا ولاكذابا » .

وحاشا للنبي ﷺ أن يتصف بهذه الصفات التي تثلم الشرف وتحجب السيادة ، فإن من أبرز صفات السيادة الكرم والشجاعة والصدق ، ولقد كان لرسول الله ﷺ أعلى ما يمكن أن يتخلق به بشر من هذه الصفات وغيرها من مكارم الأخلاق .

ثانيًا : دقة النبي ﷺ في الأمور المالية وحقوق الناس ، فحينما ذكر الوعيد على من أخذ شيئًا من الغنيمة فقال : « أدُّوا الخياط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله عارا ونارا وشنارا يوم القيامة » جاء رجل من الأنصار بلفيفة من الخيوط أخذها من المغنم ليصلح بها رحل بعيره فكان جواب النبي ﷺ « أما نصيبي منها فلك » .

لقد أخذها هذا الأنصاري وهو لايظن أن ذلك غلول لقلة ثمنها

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٦٣ - ١٦٥ .

وعدم تعلق أنظار الناس بها ، ولكن النبي ﷺ المربِّي العظيم الذي يعتبر قمة عليا في الورع لم يحتقر تلك اللفيفة ، بل سمح لذلك الرجل بنصيبه منها الذي هو الخمس ، أما أربعة أخماسها فإنه حق المسلمين المجاهدين فكيف يعطيه حقهم منها ! .

إنه درس تربوي مؤثر في تعليم الورع والدقة في محاسبة النفس واحترام حقوق الناس .

ثالثًا : مثلان من ورع الصحابة رضي الله عنهم :

الأول : خبر ذلك الأنصاري الذي جاء بلفيفة الخيوط ولم يسكت عليها لما خشي أن يكون ذلك من الغلول .

والثاني : خبر عقيل بن أبي طالب حينما سمع منادي رسول الله ﷺ يقول : « من أخذ شيئا فليرده حتى الخياط والمخيط » فرد إبرة كان أخذها من المغنم بالرغم من أنه كان حديث عهد بالإسلام .

وفي خبر سابق جاء أن الغنائم اشتملت على أربعة آلاف أوقية من الفضة ، ولقد كان بإمكان الذين غنموها أن يخفوا شيئا منها لسهولة ذلك ولكنهم كانوا مُثُلاً عليا في الأمانة والورع ، فأدَّوا ما غنموه بأمانة وإخلاص ، وبهذا أصبحوا مثالا يحتذى لمن جاء بعدهم .

* * *

١٦ – أمثلة من أخلاق النبي ﷺ وأصحابه العالية – (وفادة هوازن وإطلاق الأسرى)

١ – قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دَحْنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس ، ومعه من هوازن سبي كثير ، وقد قال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف : يارسول الله ، ادع عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اهد ثقيفا وأت بهم .

ثم أتاه وفد هوزان بالجعرانة ، وكان مع رسول الله ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الإبل والشاء مالا يُدرى ماعدَّتهُ .

قال ابن إسحاق : فحدثني عمرو بن شُعيب ، عن أبيه ، عن جدّه عبد الله بن عمرو : أنّ وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا ، فقالوا : يارسول الله ، إنا أصلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخفَ عليك ، فامنن علينا ، مَنَّ الله عليك . قال : وقام رجل من هوازن ، ثم أحد بني سعد بن بكر ، يقال له زُهير ، يكنى أبا صُرَد ، فقال : يارسول الله ، إنما في الحظائر عمَّاتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كُنَّ يكفلنك ، ولو أنّا ملَحْنا للحارث بن أبي شمر ، أو للنعمان بن المنذر[١] ، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به ، رجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين .

---

(١) يعني لو كان أحدهما رضع فينا كما رضعت .

قال ابن هشام : ويُروى ولو أن مالحنا الحارث بن أبي شمر ، أو النعمان ابن المنذر .

قال ابن إسحاق : فحدثني عمرو بن شُعيب ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عمرو ، قال : فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يارسول الله ، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل تردُّ إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحبُّ إلينا ، فقال لهم : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وإذا ما أنا صليت الظُّهر بالناس ، فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم ، فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال الأقرعُ بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عُيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سُلَيم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ، ماكان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

قال : يقول عباس بن مرداس لبني سليم : وهَّنتموني .

فقال رسول الله ﷺ : أمَّا من تمسك منكم بحقه من هذا السَّبي فله بكل إنسان ستُّ فرائض ، من أوّل سَبي أصيبه ، فردُّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم [1] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/١٥٦ - ١٥٩ .

=

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : سياسة النبي ﷺ الحكيمة وحسن تصرفه ومقدرته على الإقناع ، فقد جاء إليه وفد من قبيلة هوازن التي نُكبت في نسائها وأبنائها وأموالها ، جاؤوا إليه مسلمين راغبين في فكاك أسراهم وإعادة أموالهم إليهم ، فخلَّص لهم النبي ﷺ نساءهم وأبناءهم من الرق في موقف واحد وكلمات معدودات ، من غير أن يغتصب هذا من المسلمين الغانمين بعدما امتلكوه ، بل بحسن السياسة والقدوة الحسنة والتدبير المحكم .

إن تصرف النبي ﷺ هذا يعتبر مثالا عاليا للتربية بالقدوة الحسنة ، فقد ضرب المثل في البذل والتضحية بنفسه وقرابته الأدنين ، ولسان حاله يقول : ارتفعوا أيها المسلمون إلى هذا المستوى العالي الذي رفعت إليه نفسي وقرابتي ، ولاشك أن هذا من أبلغ الأساليب في التأثير على النفوس ، خاصة إذا صدر ممن هو محطُّ الأنظار وموضع القدوة .

ولقد نجح النبي ﷺ نجاحا كبيرا حيث حل هذه القضية المشكلة بعد صلاة الظهر في كلمات . . نجح حينما حمل أكثر المسلمين على التنازل عما في أيديهم من الأسرى تأسِّيًا به ﷺ ، ونجح حينما حل مشكلة المتمنِّعين المتمسكين بما في أيديهم حيث ألزمهم بتسليم ما في أيديهم من

= وأخرجه الإمام البخاري من حديث مروان والمسور بن مخرمة مختصرا - صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٣١٨ ، ٤٣١٩ (٨/ ٣٢ - ٣٣) .

وأخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو ، ذكره الهيثمي وقال : رجال أحد إسناديه ثقات ٦/ ١٨٨ .

وأخرجه الواقدي عن شيوخه وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٩ - ٩٥٢ - .

الأسرى في مقابل ستة أسهم من أول فيء يفيئه الله تعالى عليه ، فهو في هذه الحال لم يقرَّ التفرقة بين الأسرى بحيث يُعتَق فريق ويبقى فريق على الرق، ولم يجبر أصحاب الحق على تسليم مافي أيديهم بدون مقابل، بل أعطاهم ما أرضاهم مقابل حقهم .

فما أحكم هذه السياسة ! وما أعظم هذه القدوة ! وما ألطف هذا التدبير ! .

ثانيًا : موقف جليل للصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار وبني سليم حيث تنازلوا حالاً عما في أيديهم من الأسرى تأسيا برسول الله ﷺ وبني عبد المطلب ، وهذا دليل على قوة إيمانهم وتجردهم من حظوظ النفوس وتنافسهم في الخير وعمل الآخرة .

ومما يلاحظ أنهم بادروا إلى هذا العمل الصالح من غير تردد، وكان السابقون إلى التنازل هم المهاجرين وهذه منقبة تُذكر لهم .

كما أنه يلاحظ أن هذه الطوائف كانت متحدة الكلمة فيما بينها حيث لم يقم أحد من الأتباع يخالف ما أمضاه السادة الذين يتكلمون عادة بلسان قومهم ، وهذه فضيلة تذكر لهؤلاء الأماجد الكرام ، إلا ما كان من بني سليم وزعيمهم فقد تداركوا الموقف وخالفوه ووافقوا المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

* * *

١٧ - نموذج من دعوة النبي ﷺ وسياسته العالية - (إسلام مالك بن عوف)

قال ابن إسحاق : قال رسول الله ﷺ لوفد هوزان ، وسألهم عن مالك بن عوف مافعل ؟ فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله ﷺ : أخبروا مالكا أنه إن أتاني مُسلما رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مئة من الإبل ، فأُتيَ مالكٌ بذلك ، فخرج إليه من الطائف - وقد كان مالك خاف ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ماقال ، فيحبسوه - فأمر براحلته فهُيئَتْ له ، وأمر بفرس له ، فأُتيَ به إلى الطائف ، فخرج ليلا ، فجلس على فرسه ، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحْبَس ، فركبها ، فلحق برسول ﷺ ، فادركه بالجعرانة أو بمكة ، فردّ عليه أهله وماله ، وأعطاه مئة من الإبل ، وأسلم فحسُن إسلامه ، فقال مالك بن عوف حين أسلم :

ما إن رأيتُ ولاسمعتُ بمثله	في الناس كلِّهمُ بمثل محمد
أوفَى وأعطى للجزيل إذا اجْتُدي	ومتى تشأ يُخبركَ عما في غد
وإذا الكتيبةُ عرَّدَت أنيابُها	بالسّمهريّ وضرب كل مُهنَّد[١]
فكأنه ليثٌ على أشباله	وسْط الهباءة خادرٌ في مَرصد[٢]

فاستعمله رسولُ الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وتلك القبائل : ثُمالة ، وسلمةُ ، وفَهْم ، فكان يُقاتل بهم ثقيفا ، لايخرج لهم سرحٌ إلا

(١) عردت أنيابها أي خرجت كلها واشتدت ، وهو كناية عن كمال استعدادها ، والسمهري : الرمح ، والمهند : السيف .

(٢) الهباءة : الغبار ، والخادر : المقيم في عرينه ، والمرصد : مكان الرصد .

أغار عليه ، حتى ضيق عليهم ، فقال أبو محجَن بن حبيب بن عمرو ابن عمير الثقفي :

هـابت الأعـــداءُ جانبنا ... ثــم تـغزونا بنو سلَمَهْ

وأتــانــا مــالكٌ بــهــمُ ... نــاقـضًا للعهد والحُرَمَهْ

وأتـــوا فـــي مـنازلـنــا ... ولــقد كـــنا أولي نقَمَهْ (١)

وأخرج الإمام الطبراني من حديث محمد بن سلام الجمحي قال : وهو - يعني مـالك بن عـوف - على هوازن حين لقـيـهـم مع رسـول الله ﷺ ، وساق مع الناس أموالهم وذراريهم ، فخالفه دريد بن الصمة فلجَّ وأبَى ، فصاروا إلى أمره فلم يحمدوا رأيه ، وكان يومئذ رئيسهم ، فلما رأى هزيمة أصحابه قصد نحو النبي ﷺ - وكـان شديد الإقـدام - ليصيبه - زعم - فوافاه مرثد بن أبي مرثد الغنوي فقاتله ، وحمل فرسه فعاج فلم يُقدم ، ثم أراده وصاح به فلم يقدم . . .

قال : ثم انهزم من حنين فصار إلى الطائف فقال رسول الله ﷺ : لو أتاني لأمَّنته وأعطيته مائة ، فجاء ففعل به ذلك ، ووجَّهه على قتال أهل الطائف .

وقال في أخباره بعد ذلك : وكتب سعد بن أبي وقاص (٢) إلى عمر

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٦١ - ١٦٢ .

وأخرجه الإمام الطبراني من طريق ابن إسحاق ، ذكره الهيثمي وقال : ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٨٩ - .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٣/ ٩٥٤ - ٩٥٦ - .

(٢) يعني يوم أن كان واليا على العراق وقائداً لمعركة القادسية .

ابن الخطاب رضي الله عنهما يستمدُّه ، فكتب إليه : تستمدني وأنت في عشرة آلاف ومعك مالك بن عوف وحنظلة بن ربيعة - وهو الذي يقال له حنظلة الكاتب - .

قال ابن إسلام : فحدثني بعض قومه أنه قال لعمر بن الخطاب : إنَّ رسول الله ﷺ أعطاني يتألفني على الإسلام فلم أحب أن آخذ على الإسلام أجرًا فأنا أردها ، قال : إنه لم يعطكَها إلا وهو يرى أنها لك حق .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه الطبراني عن خليفة بن خياط عن محمد بن سلام الجمحي وكلاهما ثقة [١] .

في هذين الخبرين مواقف منها :

أولا : موقف عظيم لرسول الله ﷺ في حسن السياسة والحكمة في إدارة الأمور الحربية ، والتخطيط العالي في الدعوة ، وذلك حينما خطط لاجتذاب الزعيم الكبير الذي استطاع أن يسود عددا من القبائل وأن يجمع ذلك الجيش الكثيف مع أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، ألا وهو مالك بن عوف النصري .

لقد كان النبي ﷺ يخطط لهذا الأمر قبل مجيء وفد هوازن ، ومما يدل على ذلك أنه عزل أهل مالك وماله فلم يقسم ذلك مع الغنائم ، فلما جاء وفد هوازن اغتنم الفرصة وقال لهم : « أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل » .

تُرَى ماهي مشاعر مالك بن عوف حينما انهزم قومه وذهب منهم كل

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٨٤ - ١٨٥ .

شيء حتى نساؤهم وأبناؤهم ، وكان هو السبب في كل ماجرى لهم؟! .

وكيف سيواجه انتقادات القبائل اللاذعة ؟ ! وكيف سيستعيد سمعته العالية بين القبائل ؟ ! وماهي مشاعره حينما أصبح بعيدا عن قومه لاجئا عند ثقيف ؟ !

وماهي أفكاره نحو ما سيقوم به رسول الله ﷺ من مطاردته ومحاولة القضاء عليه ؟ !

كل هذه الأفكار وأضعافها من المفترض أن تفرض نفسها على مالك .

ولكن بينما هو في خضمِّ هذه الأفكار ، وإذا بيد حانية وصوت رحيم من عدوه الذي أجلب عليه قبائل العرب يدعوه إلى أخذ أهله وماله إضافة إلى رفده بمائة من الإبل .

كل هذا في مقابل ماذا ؟ في مقابل أن يدخل في الإسلام ! .

سبحان الله ! هذا النبي الكريم والسيد العظيم الذي أشعل في وجهه تلك الحرب الضروس يتنازل عن كل ما يُتصوَّر عادة من الغضب والحقد وإرادة الانتقام ، ومحاولة إذلال الخصم ، ثم لايكتفي بذلك بل يرد على مالك أهله وماله مع مائة من الإبل في مقابل أن يسلم !! .

إن هذا أمر خارج عن ما اعتاده البشر وإن هذا الدين الذي سيُجعل عوضا عن كل هذه التنازلات ، وعن كل هذه المكرمات لدين عظيم يفرض على العقلاء أن يعتنقوه .

وهكذا أسلم مالك حالاً لأنه من عقلاء الرجال وحكمائهم .

إن هذا التخطيط المحكم ، والتدبير المنظَّم من رسول الله ﷺ له مابعده من النتائج العالية في مجال الدعوة ، وذلك أنه إذا أسلم زعيم القبيلة يسلم أفرادها أو أكثرهم ، وكذلك في مجال الحرب ، حيث ولاه الرسول ﷺ على من أسلم من قومه والقبائل المجاورة ، فصار مشْعَل حرب على قبيلة ثقيف التي امتنعت عن الإسلام حتى دوَّخهم وألجأهم إلى التفكير في مسالمة النبي ﷺ ، الأمر الذي قادهم إلى الإسلام كما سيأتي .

كل هذه النتائج الضخمة ساقها ماخطط له النبي ﷺ من اجتذاب مالك بن عوف إلى الإسلام .

فما أعظمه ﷺ من قائد محنَّك ، وداعية مسدد ، وإداري حكيم ! !

ثانيًا : موقف مالك بن عوف الذي أخلص في خدمة الإسلام ودولته ، وقطع أحلافه التي كانت في الجاهلية ، وأبدلها برابطة الإسلام ، واستعمل ذكاءه وسياسته وشجاعته النادرة في غزو أعداء الإسلام من قبيلة ثقيف حتى حصرهم داخل حصنهم ، وأصبحوا لايأمنون على أموالهم خارجه ، فدفع بهم إلى محاولة مسالمة النبي ﷺ ثم إلى الإسلام .

لقد دخل بإسلامه عهدا جديدًا ذهبت معه كل تلك الأفكار الضاغطة التي حولت الليث الهزَبر إلى حَمَل وديع يعيش في كنف قبيلة أخرى ، ليعود القائد الحربي البارع بعد أن ولاه الرسول ﷺ على قبيلته والقبائل المجاورة ، وليمارس كفاءاته الإدارية والحربية في نصر الإسلام ودولته .

ومما يذكر له قصيدته البليغة في مدح النبي ﷺ التي جاءت في هذه

الرواية ، وهي تدل على حبه البالغ لرسول الله ﷺ وإعجابه به .

ثالثًا : أما الرواية الأخيرة التي رواها الإمام الطبراني من حديث محمد بن سلام الجمحي فهي مجموعة من أخبار مالك بن عوف وفيها ما يتعلق بحنين وفيها ماجرى بعد ذلك ، ومادام الحديث هنا عن مالك فلا بأس من التعليق على ماجاء في هذا الخبر عنه .

فقد ذكر قيادة مالك لقومه يوم حنين وأنه لما رأى هزيمة قومه توجه لقتل النبي ﷺ وأن فرسه أبى عليه أن يُقدم .

فهذا الذي حصل لفرسه أمر غير معتاد فلعل جنود الله تعالى التي نزلت ذلك اليوم حالت دون الفرس فلم يُقدم فكان ذلك خيرا لمالك .

وذكر منقبة عالية لمالك في الشجاعة وذلك حينما كتب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يستمد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فكتب إليه «تستمدني وأنت في عشرة آلاف ومعك مالك بن عوف وحنظلة بن ربيعة» وهذا يعني شهرة مالك بالشجاعة والإقدام ، ولايقال هذا غالبا إلا في البطل الذي يعدل بألف .

ثم ذكر أخيراً خبراً عن ورع مالك وذلك حينما قال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب : إن رسول الله ﷺ أعطاني يتألفني على الإسلام فلم أحب أن آخذ على الإسلام أجرا فأنا أردها ، ولكن عمر أبى أن يأخذها وقال : إنه لم يعطكها إلا وهو يرى أنها لك حق .

ولقد طابت نفس مالك بذلك حينما أفتاه عمر باستحقاقه لذلك المال لغزارة علم عمر ولكونه شديد التحري في أمور المال ، ويكفي مالكا

بهذا ماذكَّره به عمر من أن النبي ﷺ حينما أعطاه المال كان يرى أنه حق له .

وهذا يدل على قوة إيمان مالك وورعه في أمور دينه ، رضي الله عنه وأرضاه .

* * *

١٨ – مثل من مقدرة النبي ﷺ على الإقناع – (خبر شكوى الأنصار)

قال ابن هشام : حدثني زياد بن عبد الله ، قال : حدثنا ابن إسحاق : قال : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا ، في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالةُ حتى قال قائلهم : لقد لقي والله رسولُ الله ﷺ قومه ، فدخل عليه سعد ابن عُبادة فقال : يارسول الله ، إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجَدوا عليك في أنفسهم ، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمْتَ في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء . قال : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال : يارسول الله ، ما أنا إلا من قومي . قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة ، قال : فخرج سعد ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة .

قال : فجاء رجال من المهاجرين فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم . فلما اجتمعوا له أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحيّ من الأنصار ، فأتاهم ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يامعشر الأنصار ، ماقالةٌ بلغتني عنكم ، وَجدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلاّلا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ، قالوا : بلى ، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل ، ثم قال : ألا تجيبونني يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله؟ لله

ولرسوله المنُّ والفضلُ . قال ﷺ أمَا والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدِّقتم : أتيتنا مُكذَّبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوَجَدْتم يامعشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعَة[1] من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليُسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يامعشر الأنصار ، أن يذهب الناسُ بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبًا وسلكَت الأنصارُ شعبًا ، لسلكتُ شعبَ الأنصار ، اللهُم ارحم الأنصار . وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظا . ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا[2] .

وقال الحافظ ابن كثير بعدما ذكره : وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق ولم يروه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه ، وهو صحيح[3] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : ما قام به النبي ﷺ من إقناع الأنصار رضي الله عنهم ، وذلك

---

(١) هي البقية اليسيرة من الشراب في الإناء .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ١٧٥ - ١٧٨ .

وأخرجه الإمام البخاري وذكر نحوه - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٣٠(٨/ ٤٧)،

وأخرجه الإمام مسلم وذكر نحوه - صحيح مسلم ، الزكاة ، رقم ١٠٥٩ (ص ٧٣٣) .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٣/ ٩٥٦ - ٩٥٨ - .

(٣) البداية والنهاية ٤/ ٣٥٧ - ٣٥٨ .

ببيانه البديع الذي غير به مشاعرهم وذلك بعدما بين بأسلوبه الرائع السبب الذي من أجله تصرف ذلك التصرف في قسمة الفيء ، الأمر الذي كان غائبا عن الأنصار تصورُه ، فلما فهموا مراد النبي ﷺ اقتنعوا حالاً ، وعلموا أنه ماتركهم إلا إعلاءً لشأنهم واعتقادا منه بعلو كعبهم في الإيمان بهذا الدين .

ومن هنا نعلم أن الخطأ في تصور الأمور على حقيقتها والقصور في إدراك المقاصد قد يتعرض له بعض أقوياء الإيمان مما ينجم عنه اعتراض على تصرفات القادة ، الأمر الذي قد يترتب عليه الخلل في سير العمل ، ولكن سرعان مايزول هذا التصور الخاطيء وتعود المياه إلى مجاريها إذا وفِّق المسلمون بالقادة الحكماء ، الذين يزنون الأمور ويضعونها في مواضعها .

ولقد قدَّم النبي ﷺ لبيان السبب في إعطاء تلك العطايا الكبيرة في بعض زعماء القبائل بمقدمة بين بها فضل الأنصار ، كما ختم كلمته ببيان فضلهم والدعاء لهم ولذرياتهم ، ولقد وُفِّق ﷺ تمام التوفيق في إقناع الأنصار بوجهة نظره ، فتغيرت مشاعرهم وملامحهم من إضمار السخط وإظهار النقد إلى إضمار الرضى واظهار الفرح والسرور والتأثر البالغ مما صدر منهم الذي عبَّروا عنه بالدموع الغالية التي انسكبت على لحاهم وبقولهم : رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا ، رضي الله عنهم أجمعين .

ثانيًا : موقف يُذكر لسعد بن عبادة رضي الله عنه حينما قال له رسول الله ﷺ : « فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ » قال : يارسول الله ما أنا

إلا من قومي ، فهذا يدل على اتصافه بخلق الصراحة والصدق ، فهو لم يبرِّئ نفسه من المَوْجدة على رسول الله ﷺ مع علمه بأنه يكره ذلك ، مادام أنه قد أضمر في نفسه هذا الأمر .

وقد جاء في إحدى روايات مسلم ، فقال - يعني رسول الله ﷺ «مالذي بلغني عنكم ؟ قالوا : هو الذي بلغك ، وكانوا لايكذبون .

وهكذا كانت أخلاق الصحابة رضي الله عنهم على الصدق والوضوح والصراحة ، بينما نجد أبناء الدنيا يشاركون في الإنكار على المسئول ، ثم إذا جاء التحقيق في الموضوع بَرَّؤوا أنفسهم قبل أن يكون تحقيق بل لمجرد علمهم بأن الموضوع أثار نقمة المسئول وتساؤله .

* * *

١٩ - مثل من أثر الجهاد في الدعوة وتصحيح الاعتقاد -

مما يلاحظ أن النبي ﷺ في غزوة حنين خرج معه بأناس بقوا على شركهم من أهل مكة مع أنه كان يرفض أن يستعين بأهل الشرك على قتال أهل الشرك كما سبق ، والظاهر أن خروجه بالمشركين معه في تلك الغزوة من أجل أن يتألفهم للإسلام ، وذلك بما يرون من انتظام المسلمين واستقامتهم ، وتخلقهم بمكارم الأخلاق .

كما أنه خرج معه بمسلمة الفتح مع أنهم حديثو عهد بالإسلام ، وفي هذا دلالة ظاهرة على أنه لايشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تماما من غبش الجاهلية ، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله وإن قصر في بعض أمور الدين الأخرى ، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيرا من العقائد والأحكام والآداب ، وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث وتلاقح الأفكار .

ولقد حدث من بعض مسلمة الفتح هؤلاء أمر يُخلُّ بتوحيد الألوهية ، وذلك كما أخرج الإمام أحمد من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حنين فمررنا بسدرة فقلت : يانبي الله اجعل لنا هذه ذات أنواط[١] كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون بسلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ « الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، إنكم تركبون سَنَن الذين من قبلكم »[٢] .

(١) أي ذات تعاليق .

(٢) مسند أحمد ٥/ ٢١٨ .

وأخرجه الإمام الترمذي من حديث أبي واقد رضي الله عنه وذكر نحوه[1] .

وهذا يدل على أن هؤلاء المسلمين الذين قالوا هذا الكلام لم يكونوا يفرقون بين التوحيد والشرك في بعض الصور ، ومع ذلك لم يؤخر النبي ﷺ مشاركتهم في الجهاد حتى يتعلموا أمور العقيدة ، بل كان خروجهم للجهاد سببا في حدوث هذه المناسبة التي تعلموا منها أصلا من أصول العقيدة .

* * *

---

(١) سنن الترمذي ، الفتن ، رقم ٢١٨٠ (٤/ ٤٧٥) .

وأبو واقد الليثي أسلم يوم الفتح على القول الراجح ، وقد جاء في إحدى الروايات « ونحن حديثو عهد بكفر » - الإصابة رقم ١٢١١ (٤/ ٢١٢) .

مواقف وعبر

ما بين حنين وتبوك

١ – إسلام كعب بن زهير ومدحه رسول الله ﷺ –

قال ابن إسحاق : ولما قدم رسول الله ﷺ من مُنْصَرَفه عن الطائف كتب بُجَير بن زُهير بن أبي سُلْمى إلى أخيه كعب بن زهير يُخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالا بمكة ، ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بقي من شُعراء قريش كابن الزِّبَعرَى وهُبيرة بن أبي و هب ، قد هربوا في كلِّ وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة ، فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لايقتل أحدًا جاءه تائبًا ، وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك من الأرض .

قال ابن إسحاق : فلما بلغ كعبا الكتابُ ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرْجَف به من كان في حاضره من عدُوِّه ، فقالوا : هو مقتول ، فلما لم يجد من شيء بُدّا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ وذكر فيها خوفه وإرجافَ الوشاة به من عدوّه ، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينةَ – كما ذُكر لي – فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله ﷺ ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ ، فقال : هذا رسول الله ﷺ ، فقم إليه فاستأمنه . فذُكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ ، حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، وكان رسول الله ﷺ لايعرفه ، فقال : يارسول الله ، إنَّ كعب بن زُهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مُسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، قال : أنا يارسول الله كعبُ بن زُهَير .

ثم ذكر قصيدته التي مدح بها رسول الله ﷺ ومطلعها :

بَانَتْ سُعادُ فقلبي اليومَ متبُولُ ... مُتيَّمٌ إثرها لم يُفْدَ مكْبُولُ

إلى أن قال :

وقال كـــل صديق كنت آمله لا ألهينَّك إني عنك مشغول

فقلت : خلُّوا سبيلي لا أبـا لكم فكلٌّ ماقـدر الـرحمن مفعول

كلُّ ابن أُنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء[1] محمول

نُبِّئت أن رسول الله أوعـدني والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

لاتأخذنِّي بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فيَّ الأقاويل

لقد أقوم مقامًا لو يقوم بـه أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

لَظَلَّ يرعـد ، إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تنويل

مازلت أقتطع البيداء مُدَّرعًا جنح الظلام وثوب الليل مسدول

حتى وضعت يميني ما أُنازعه في كفٍّ ذي نقمات قيلُه القيل[2]

فَلَهْوَ أخوف عندي إذ أكلمه وقيل إنك منسوبٌ ومسئول

من ضَيغَم بضَراء الأرض مَخْدَرُهُ في بطـن عَثَّر غيلٌ دونه غيل[3]

---

(١) يعني النعش .

(٢) نقمات جمع نقمة بفتح فكسر وهي المكافأة بالعقوبة والمؤاخذة على الذنب ، وقيله يعني قوله ويقصد به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) الضيغم الأسد ، وضَرَاء الأرض أرض مستوية تأوي إليها السباع وبها نبذ من الشجر ، والمخدر العرين ، وبطن عثَّر اسم مكان ، والغيل الشجر الملتف .

إلى أن قال :

إن الرسول لنور يستضاء به مهنَّد من سيوف الله مسلول[1]

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : مثل من أمثلة كثيرة مر بعضها في عفو النبي ﷺ عن الذين أساؤوا إليه تَألفًالهم إلى الإسلام ، ومنهم كعب بن زهير الذي كان هجا النبي ﷺ من قبل ، فتغاضى ﷺ عن ذلك لما جاء مسلما .

وهكذا كان النبي ﷺ لاينتصر لنفسه ، بل كان يغض الطرف عن الإساءات التي تُوَجَّه إليه من أجل أن يكسب الناس للإسلام .

ثانيًا : موقف لبجير بن زهير حيث دعا أخاه إلى الإسلام بالطريقة التي تؤثر عليه فهدده بقوة دولة الإسلام ، وهو يعلم أنه إذا جاء مستسلما بدافع من الخوف على نفسه سيتفهم الإسلام ويقتنع به ، وهذا قد حدث فعلاً حيث حسن إسلام كعب وكان له ذكر حسن في الإسلام .

ثالثًا : موقف لكعب بن زهير في هذه القصيدة العصماء المشهورة التي مدح بها رسول الله ﷺ وأشاد فيها بعزته وشجاعته ورفعة مقامه وهيبته التي خلعت قلوب الأبطال مع ماهو فيه من التواضع العظيم .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٨٠ - ١٩٥ .

وأخرجه الإمام البيهقي موصولا إلى عبد الرحمن بن كعب بن زهير - دلائل النبوة -٥/٢٠٧-٢١١- .

٢ – مثل من الفداء والتضحية في سبيل الدعوة – (إسلام عروة بن مسعود ودعوته قومه)

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : كان عُروة بن مسعود حين حاصر النبي ﷺ أهل الطائف بجُرَش ، يتعلّم عمل الدَّبَّابات والمُنْجَنيق ، ثم رجع إلى الطائف بعد أن ولّى رسول الله ﷺ ، فعمل الدبابات والمُنجنيق والعرّادات [١] وأعد ذلك حتى قذف الله عز وجل في قلبه الإسلام .

فقدم المدينة على النبي ﷺ فأسلم ، ثم قال : يارسول الله ائذن لي فآتي قومي فأدعوهم إلى الإسلام ، فو الله مارأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب . فأقدُم على أصحابي وقومي بخير قادم ، وما قدم وافدٌ قَطُّ على قومه إلا من قدم بمثل ماقدمتُ به ، وقد سُبِقتُ يارسول الله في مواطن كثيرة . فقال رسول الله ﷺ : إنَّهم إذًا قاتلوك ! قال : يارسول الله ، لأنا أحبّ إليهم من أبكار أولادهم ، ثم استأذنه الثانية فأعاد عليه الكلام الأول ، وقال رسول الله ﷺ : إنهم إذًا قاتلوك . قال : يارسول الله ، لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني . واستأذنه الثالثة فقال : إن شئت فاخرج .

فخرج إلى الطائف فسار إليها خمسًا ، فقدم على قومه عشاءً فدخل منزله ، فأنكر قومه دخوله منزله قبل أن يأتي الرَّبة [٢] : ثم قالوا : السفر قد حَصَره . فجاؤوا منزله فحيّوه تحية الشِّرْك ، فكان أوّل ما أنكر عليهم تحية الشرك ، فقال : عليكم تحيّة أهل الجنة . ثم دعاهم إلى الإسلام .

---

(١) العرادات من آلات الرماية وهي أصغر من المنجنيق .

(٢) يعني صنم اللات .

وقال : ياقوم ، أتتَّهمونني ؟ ألستم تعلمون أنِّي أوسطكم نَسَبًا ، وأكثركم مالاً ، وأعزُّكم نَفَرًا ؟ فما حملني على الإسلام إلا أنِّي رأيتُ أمرًا لايذهب عنه ذاهب ! فاقبلوا نُصْحي ، ولاتَستَعصوني . فو الله ماقدم وافدٌ على قوم بأفضل مما قدمتُ به عليكم ، فاتهموه واستغشُّوه وقالوا : قد واللاَّت وقع في أنفسنا حيثُ لم تَقْرُب الربَّة . ولم تحلق رأسك عندها أنَّك قد صَبَوْتَ[1] ! فآذَوْه . ونالوا منه ، وحَلُم عليهم .

فخرجوا من عنده يأتمرون كيف يصنعون به ، حتى إذا طلع الفجر أوْفَى على غرفة له فأذَّن بالصلاة . فرماه رجلٌ من رَهْطه من الأحلاف يقال له وَهْب بن جابر - ويقال : رماه أوس بن عوف من بني مالك ، وهذا أثبت عندنا - وكان عُروة رجلاً من الأحلاف ، فأصاب أكحَلَه فلم يرْقأ دَمُه [2] . وحشد قومُه في السلاح . وجمع الآخرون وتجايشوا ، فلما رأى عُروة ما يصنعون قال : لاتقتتلوا فيَّ ، فإنِّي قد تصدقت بدمي على صاحبه - ليُصلحَ بذلك بينهم - فهي كرامة الله أكرمني الله بها ، الشهادة ساقها الله إليَّ ، أشهد أن محمداً رسول الله . خبَّرني عنكم هذا أنَّكم تقتُلونني ، ثم قال لرَهْطه : ادفنوني مع الشهداء الذين قُتلُوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، قال : فدفنوه معهم ، وبلغ رسول الله ﷺ قَتْلُه فقال : مثل عُروة مَثَل صاحب ياسين . دعا قومه إلى الله عز وجل فقتلوه [3] .

---

(١) أي تركت دين قومك ودخلت في الإسلام .

(٢) أي لم يقف ، والأكحل عرق معروف في اليد .

(٣) مغازي الواقدي ٣/ ٩٦٠ - ٩٦١ .

وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام الطبراني أخرجه من طريقين مرسلا بإسناد حسن - مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٦ - . =

وهكذا رأينا كيف جاد عروة بن مسعود رضي الله عنه بنفسه في سبيل الله تعالى ابتغاء هداية قومه إلى سبيل الرشاد بعد أن لقي من قومه مالقي من الإهانة والأذى ، ولم يكن خافيا عليه صعوبة الأمر الذي سيواجهه من قومه وهو يدعوهم إلى الإسلام الذي قاتلوا من أجله رسول الله ﷺ ، ولكن صاحب الإيمان القوي لايهدأ له بال ولايقر له قرار وهو يرى أقرب الناس إليه لم ينعموا بعدُ بنعمة الإيمان التي أصبح يتفيأ ظلالها، وكيف يشعر بالسعادة وهو يوقن بأن أقرب الناس إليه سيكونون بعد الموت من حطام جهنم وبئس القرار ؟.

من أجل هذا الشعور القوي المتدفق ضحَّى بصحبة النبي ﷺ التي هي أغلى مايمكن أن يطلبه المسلم في ذلك العهد وسارع لمحاولة هداية قومه وإنقاذهم من ضلال الكفر ، ولكنَّ تمكُّن الجاهلية من قلوبهم وتعصبهم الأعمى لموروثاتهم حال بينهم وبين الهدا ية ، ولقد كان هذا التعصب مستحكما في عقولهم إلى الحد الذي لم يُبق فيها منفذاً للتفكير في كونها حقا أو باطلا ، ولهذا لم يتيحوا الفرصة لمن أراد أن يبصرهم بماهم عليه من باطل ، ولم يفتحوا معه باب الحوار حتى للدفاع عن باطلهم، بل عجَّلوا بالقضاء عليه وإن كان سيداً من ساداتهم فأطفأوا النور الذي ساقه الله لهم لإخراجهم من الظلمات .

وفي قوله لقومه لما حشدوا السلاح لقتال من اعتدوا عليه « لاتقتتلوا فيّ فإني قد تصدقت بدمي على صاحبه » دلالة على مبلغ استهانة المؤمن الحق بنفسه ودنياه في سبيل رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية ، فهو

= وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ٢٣٦ - ٢٣٧ - .

يبين لقومه أنهم إن كانوا يهتمون بقضية الثأر التي هي إشباع لغريزة التشفّي والانتقام ، فإنه لايهتم بشيء من ذلك لأنه لايريد إلا الجزاء من الله تعالى ، ويعتبر أن هذا القتل كرامة أكرمه الله بها .

وهكذا يرفع الإسلام من تفكير معتنقيه ويشدهم إلى الاهتمام بمعالي الأمور .

إن موقف عروة بن مسعود رضي الله عنه في دعوة قومه والتضحية بنفسه في سبيل ذلك جعله جديرا بثناء النبي ﷺ عليه بقوله « مثل عروة مثل صاحب ياسين ، دعا قومه إلى الله عز وجل فقتلوه » .

وإنه ليجدر بنا أن نورد موجزاً لقصة صاحب ياسين رحمه الله لتتم المقارنة بين المشبه والمشبه به .

وقد ذكر الله سبحانه قصته بقوله ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ [يس : ٢٠ – ٢٥] .

وقد ذكر ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه : أن أهل القرية همُّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى أي لينصرهم من قومه ، قالوا : وهو حبيب ، وفي رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس قال : اسم صاحب ياسين حبيب النجار .

قال ابن إسحاق في روايته : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له أحد يمنع عنه [1] .

قال تعالى ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس : ٢٦ ، ٢٧] .

وهكذا تكون عاقبة المتقين ، أما عاقبة الكافرين المكذبين فقد ذكرها الله جل وعلا بقوله ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾[يس : ٢٨, ٢٩] .

* * *

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٩٢ .

٣ – سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم الفُلس في بلاد طيء –

قال الواقدي : حدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز قال : سمعت عبد الله بن أبي بكر بن حزم يقول لموسى بن عمران بن منَّاح ، وهما جالسان بالبقيع : تعرف سرية الفُلْس ؟ قال موسى : ماسمعت بهذه السرية . قال : فضحك ابن حزم ثم قال : بعث رسول الله ﷺ عَليًا عليه السلام في خمسين ومائة رجل على مائة بعير وخمسين فرسًا ، وليس في السرية إلا أنصاريّ ، فيها وجوه الأوس والخزرج ، فاجتنبوا الخيل واعتقبوا على الإبل حتى أغاروا على أحياء من العرب ، وسأل عن محَلَّة آل حاتم ثم نزل عليها ، فشنُّوا الغارة مع الفجر ، فَسَبَوا حتى ملؤوا أيديهم من السَّبْي والنَّعَم والشاء ، وهدموا الفُلْس وخرّبوه ، وكان صنمًا لطَيئ ثم انصرف راجعًا إلى المدينة .

قال عبد الرحمن بن عبد العزيز : فذكرتُ هذه السرية لمحمد بن عمر ابن عَليّ ، فقال : ما أرى ابن حزم زاد على أن ينقل من هذه السرية ولم يأتك بها . قلت : فأت بها أنت ! فقال : بعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى الفُلْس ليهدمه ، في مائة وخمسين من الأنصار ، ليس فيها مُهاجرٌ واحد ، ومعهم خمسون فرسًا وظهْرًا ، فامتطوا الإبل وجنبوا الخيل ، وأمره أن يشنّ الغارات ، فخرج بأصحابه ، معه رايةٌ سوداءُ ولواءٌ أبيضُ ، معهم القَنا والسِّلاح الظاهر ، وقد دفع رايته إلى سهل بن حُنيف ، ولواءَه إلى جبَّار بن صخر السَّلمي ، وخرج بدليل من بني أسد يقال له : حُرَيث . فسلك بهم على طريق فَيد . فلما انتهى بهم إلى موضع قال : بينكم وبين الحيّ الذي تُريدون يومٌ تامٌّ . وإن سرناه بالنهار وطئنا أطرافهم ورعاءَهم . فأنذروا الحيَّ فتفرقوا . فلم

تُصيبوا منهم حاجتكم ، ولكن نُقيم يومنا هذا في موضعنا حتى نُمسي ثم نَسري ليلتنا على متون الخيل فنجعلها غارةً حتى نُصبّحهم في عَماية الصبح .

قالوا : هذا الرأي ! فعسكروا وسرحوا الإبل ، واصطنعوا ، وبعثوا نفرًا منهم يتقصَّون ماحولهم ، فبعثوا أبا قتادة والحُباب بن المُنذر وأبا نائلة ، فخرجوا على متون الخيل لهم يطوفون حول المعسكر ، فأصابوا غلامًا أسود فقالوا : ماأنت ؟ قال : أطلب بُغْيتي ، فأتوا به عَليّاً عليه السلام فقال : ما أنت ؟ قال : باغ ، قال : فشدوا عليه ، فقال : أنا غلامٌ لرجل من طيء من بني نبْهان ، أمروني بهذا الموضع ، وقالوا : إن رأيت خيل محمد فَطر إلينا فأخبرنا ، وأنا لا أدرك أسْرًا ، فلما رأيتكم أردت الذهاب إليهم ، ثم قلت لا أعجلُ حتى آتي أصحابي بخبر بيِّن من عددكم وعدد خيلكم وركابكم ، ولا أخشى ما أصابني ، فلكأني كنت مُقيَّدًا حتى أخذتني طلائعكم ، قال عَليٌّ عليه السلام : اصدُقنا ماوراءَك! قال : أوائل الحيّ على مسيرة ليلة طَرَّادة (١) ، تُصبّحهم الخيلُ ومَغارُها حين غَدوا .

قال عليّ عليه السلام لأصحابه : ماتَرون ؟ قال جبار بن صخر : نرى أن ننطلق على متون الخيل ليلتنا حتى نُصبِّح القوم وهم غارُّون فنُغير عليهم ، ونخرج بالعبد الأسود دليلاً ، ونُخلِّف حُرَيثًا مع العسكر حتى يلحقوا إن شاء الله . قال عَلِّي : هذا الرأي ! فخرجوا بالعبد الأسود ، والخيل تَعادَى ، وهو ردْف بعضهم عُقْبَةً ، ثم ينزل فيُردف آخر عُقْبَةً ، وهو مكتوف ، فلما انهار الليل كذب العبد وقال : قد أخطأت الطريق

(١) أي طويلة .

وتركتُها ورائي . قال عَليٌّ عليه السلام : فارجع إلى حيث أخطأت ! فرجع ميلاً أو أكثر ، ثم قال : أنا على خطأ . فقال عَليٌّ عليه السلام : إنَّا منك على خُدْعة ، ماتُريد إلا أن تَثنيَنا عن الحيّ ، قَدِّموه : لَتَصْدُقَنَّا أو لنضربنَّ عنقك ، قال : فقُدِّم وسُلّ السيف على رأسه ، فلما رأى الشر قال : أرأيت إن صدقتُكم أينفعني ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني صنعتُ مارأيتم ، أنَّه أدركني مايُدرك الناس من الحياء فقلت : أقبلتُ بالقوم أدلُّهم على الحيّ من غير محنة ولاحقٍّ فآمنهم ، فلما رأيت منكم مارأيتُ وخفتُ أن تقتلوني كان لي عُذْر ، فأنا أحملكم على الطريق ، قالوا : اصدُقنا ، قال : الحيُّ منكم قريب .

فخرج معهم حتى انتهى إلى أدنى الحيِّ ، فسمعوا نُباح الكلاب وحركة النَّعَم في المَراح والشاء ، فقال : هذه الأصرام[1] وهي على فرسخ . فينظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : فأين آل حاتم؟ قال : هم متوسطو الأصرام، قال القوم بعضهم لبعض : إن أفزعْنا الحي تصايحوا وأفزعوا بعضهم بعضًا فتغيب عنا أحزابهم في سواد الليل ، ولكن نُمهل القومَ حتى يطلع الفجر معترضًا فقد قرب طلوعه فنُغير ، فإن أنذر بعضهم بعضًا لم يَخْفَ علينا أين يأخذون ، وليس عند القوم خيلٌ يهربون عليها ونحن على متون الخيل . قالوا : الرأي ما أشرت به .

قال : فلمّا اعترضوا الفجر أغاروا عليها فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا ، واستاقوا الذرّية والنساءَ ، وجمعوا النَّعَم والشاءَ ، ولم يخفَ عليهم أحد تغيب فملأوا أيديهم . قال : تقول جاريةٌ من الحيّ وهي ترى

---

(١) أي جماعات الحي .

العبد الأسود - وكان اسمه أسْلَم - وهو مُوثَق : ماله هَبَل ! هذا عمل رسولكم أسْلَم ، لاسَلم ، وهو جلبهم عليكم ، ودلَّهم على عَوْرتكم ! قال : يقول الأسود : أقْصري ياابنة الأكارم ، مادللتهم حتى قُدِّمتُ ليُضرب عنقي .

قال : فعسكر القوم ، وعزلوا الأسرى وهم ناحية نُفَير ، وعزلوا الذُّرية وأصابوا من آل حاتم أُخت عَديّ ونُسيات معها ، فعزلوهن على حدة ، فقال أسلم لعليّ عليه السلام : ماتنتظر بإطلاقي ؟ فقال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمدًا رسول الله . قال : أنا على دين قومي هؤلاء الأسرى ، ماصنعوا صنعت ! قال : ألا تراهم مُوثقين ، فنجعلك معهم في رباطك ؟ قال : نعم ، أنا مع هؤلاء مُوثقًا أحبُّ إليّ من أن أكون مع غيرهم مُطلقًا ، يصيبني ما أصابهم ، فضحك أهل السرية منه ، فأوثق وطُرح مع الأسرى ، وقال : أنا معهم حتى ترون منهم ماأنتم راؤون . فقائلٌ يقول له من الأسرى : لامرحبًا بك ، أنت جئتنا بهم ! وقائل يقول : مرحبًا بك وأهلاً ، ماكان عليك أكثر مما صنعت ! لو أصابنا الذي أصابك لفعلنا الذي فعلت وأشدَّ منه ، ثم آسيْتَ بنفسك .

وجاءَ العسكر واجتمعوا ، فقربوا الأسرى فعرضوا عليهم الإسلام ، فمن أسلم تُرك ومن أبى ضُربت عنقه ، حتى أتوا على الأسود فعرضوا عليه الإسلام ، فقال : والله إنَّ الجَزَع من السيف لَلُؤْم ، وما من خُلود! قال : يقول رجلٌ من الحيّ ممّن أسلم : ياعجبًا منك ، ألا كان هذا حيث أُخذْتَ ! فلما قُتل من قُتل ، وسُبي من سُبي منا ، وأسلم منَّا من أسلم راغبًا في الإسلام تقول ما تقول ! ويحك ، أسلم واتبع دين محمد ! قال : فإني أُسْلم وأتبع دين محمد ، فأسلم وتُرك ، وكان يَعدُ فلا يَفي

حتى كانت الرِّدَّة ، فشهد مع خالد بن الوليد اليَمامة فأبلى بلاءً حسنًا .

قال : وسار عليّ عليه السلام إلى الفُلْس فهدمه وخرّبه ، ووجد في بيته ثلاثة أسياف ، رَسوب ، والمخْذَم ، وسيفًا يقال له اليمانيّ ، وثلاثة أدراع ، وكان عليه ثيابٌ يُلبسونه إيّاها ، وجمعوا السَّبْي ، فاستُعمل عليهم أبو قتادة ، واستُعمل عبد الله بن عَتيك السُّلمي على الماشية والرِّثَّة ، ثم ساروا حتى نزلوا ركَك[1] فاقتسموا السَّبْي والغنائم ، وعزل للنبي ﷺ صَفيّا[2] رَسوبًا والمخْذَم ، ثم صار له بعدُ السيفُ الآخر ، وعزل الخُمُس ، وعزل آل حاتم ، فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة[3] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : موقف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في القيادة الحكيمة التي كانت من أسباب نجاح المسلمين في هذه السرية ، ومن ذلك أخذه بمبدإ الشورى حيث كان يستشير أصحابه قبل الإقدام ويأخذ بالرأي الصائب وإن كان من غيره .

ثانيًا : مواقف لعموم الصحابة المشاركين في هذه السرية مع قائدهم، في تفاهمهم واجتماع كلمتهم ، ونجاحهم في القضاء على عدوهم ، ثم فيما قاموا به من هدم الصنم « الفُلْس » الذي كانت قبيلة طيء تعبده ، وهذا إنجاز كبير حيث سينتهي الشرك بعد ذلك في بلاد طيء .

---

(١) اسم مكان في جبل سلمى أحد جبلي طيء .

(٢) الصفي ما كان يأخذه رئيس الجيش من الغنيمة قبل القسمة - النهاية ٢/ ٢٦٨ - .

(٣) مغازي الواقدي ٣/ ٩٨٤ - ٩٨٨ .

ثالثًا : ماقام به علي رضي الله عنه من إكرام أخت عدي بن حاتم وعدم إدخالها مع السبي الذي قسم ، وهو يقتدي بذلك بالنبي ﷺ حيث عزل أهل مالك بن عوف فلم يقسمهم تألُّفًا له للإسلام، وكذلك فعل علي ليتألف النبي ﷺ أخاها للإسلام .

* * *

٤ - نموذج من دعوة النبي ﷺ الحكيمة -
(إسلام عدي بن حاتم)

قال ابن إسحاق : وأما عدي بن حاتم فكان يقول - فيما بلغني - : مامن رجل من العرب كان أشدّ كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني ، أما أنا فكنت امْرَأً شريفا ، وكنت نصرانيا ، وكنت أسيرُ في قومي بالمرباع [١] ، فكنتُ في نفسي على دين ، وكنت مَلكا في قومي ، لما كان يُصنع بي ، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته ، فقلت لغلام كان لي عربي ، وكان راعيا لإبلي ، لا أبالك ، أعْددْ لي من إبلي أجمالا ذُلُلا [٢] سمانا ، فاحتبسها قريبا مني ، فإذا سمعتَ بجيش لمحمد قد وطيء هذه البلاد فآذنِّي ، ففعل ، ثم إنه أتاني ذات غداة ، فقال : ياعدّي ماكنت صانعا إذا غشيَتْك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإني قد رأيت رايات ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه جيوش محمد ، قال : فقلت : فَقَرِّبْ إلي أجمالي فقربها ، فاحتملت بأهلي وولدي ، ثم قلت : ألحقُ بأهل ديني من النَّصارى بالشام فسلكتُ الجوْشية - ويقال : الحوشية فيما قال ابن هشام - وخلفت بنتا لحاتم في الحاضر [٣] فلما قَدمت الشام أقمتُ بها .

وتُخالفني خيلٌ لرسول الله ﷺ ، فتصيب ابنةَ حاتم ، فيمن أصابت ، فقُدم بها على رسول الله ﷺ في سبَايا من طيء ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام ، قال : فجُعلَتْ بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا يحبَسن فيها ، فمر بها رسول الله ﷺ ، فقامت إليه ، وكانت

---

(١) وهو ربع الغنيمة يأخذه سيد القوم قبل القسمة .

(٢) جمع ذلول وهو الذي روض وذلل بالركوب عليه .

(٣) يعني في مكان إقامة قومه .

امرأة جزْلة[1]، فقالت : يارسول الله ﷺ ، هَلك الوالد ، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك . قال : ومن وافدك ؟ قالت : عديّ بن حاتم ، قال : الفارّ من الله ورسوله ؟ قالت : ثم مضى رسول الله ﷺ وتركني ، حتى إذا كان الغدُ مرَّ بي ، فقلت له مثل ذلك ، وقال لي مثل ماقال بالإمس ، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مر بي وقد يئست منه ، فأشار إليَّ رجل من خلفه أن قُومي فكلِّميه ، قالت : فقمت إليه ، فقلت : يارسول الله هَلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليّ منَّ الله عليك ، فقال ﷺ : قد فعلتُ ، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة ، حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنيني ، فسألت عن الرجل الذي أشار إليَّ أن أكلمه ، فقيل : علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وأقمت حتى قدم ركب من بليّ أو قُضاعة ، قالت : وإنما أريد أن آتيَ أخي بالشام ، قالت : فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ، قد قَدم رهط من قومي ، لي فيهم ثقة وبلاغ قالت : فكساني رسول الله ﷺ ، وحَملني ، وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام .

قال عديّ : فو الله إني لقاعد في أهلي ، إذ نظرتُ إلى ظَعينة تَصُوبُ[2] إليَّ تؤمُّنا قال : فقلت ابنةُ حاتم ، قال : فإذا هي هي . فلما وَقفت علي انسحَلَت[3] تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقيَّة والدك عورتك ، قال : قلت : أي أخيَّة ، لاتقولي إلا خيرا ، فو الله مالي من عُذر ، لقد صنعتُ ماذكرت . قال : ثم نزلت

(١) أي عاقلة أصيلة الرأي .

(٢) أي امرأة على نا قتها تنحدر من أعلى .

(٣) أي أخذت تلوم وتشتم .

فأقامت عندي ، فقلت لها - وكانت امرأة حازمة - ماذا تَرَين في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تَلْحَقَ به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيّا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تَذل في عز اليمن ، وأنت أنت ، قال : قلت : والله إن هذا للرأي .

قال : فخرجت حتى أقدم عَلَى رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلت عليه ، وهو في مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : من الرجل؟ فقلت : عديّ بن حاتم ، فقام رسول الله ﷺ ، فانطلق بي إلى بيته ، فو الله إنه لعامد بي إليه ، إذ لقيَتْه امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تُكلِّمه في حاجتها ، قال : قلت في نفسي والله ماهذا بملك ، قال : ثم مضى بي رسولُ الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وَسادة من أدَم[1] محْشوةً ليفا ، فقذفها إليّ ، فقال : اجلسْ على هذه ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض قال : قلت في نفسي والله ماهذا بأمر ملك ، ثم قال : إيه ياعديُّ بن حاتم ! ألم تك ركوسيا[2]؟ قال : قلت : بلى . قال : أو لم تكن تسيرُ في قومك بالمرْبَاع ؟ قال : قلت : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك ، قال قلت : أجل والله ، وقال : وعرفتُ أنه نبي مُرْسل يعلم مايُجهل ، ثم قال : لعلك ياعديُّ إنما يمنعك من دُخول في هذا الدين ماترى من حاجتهم ، فو الله ليوشكنّ المالُ أن يَفيض فيهم حتى لايوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ماترى من كثرة عدوِّهم وقلة عددهم ، فو الله ليوشكنَّ أن

---

(١) هو بفتحتين الجلد .

(٢) الركوسية دين بين النصارى والصابئين - النهاية ٢/ ٢٥٩ - .

تسمع بالمرأة تخرج من القادسية[1] على بعيرها حتى تزور هذا البيت ، لاتخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن المُلك والسلطان في غيرهم ، وايمُ الله ليوشكن أن تسمع بالقُصور البيض من أرض بابل قد فُتحَت عليهم ، قال : فأسلمت .

وكان عدي يقول : قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، والله لتكوننَّ ، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لاتخاف حتى تحجّ هذا البيت . وايمُ الله لتكونن الثالثة ، ليُفيضَنَّ الله المالَ حتى لايوجد من يأخذه[2] .

وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه باختصار ، وجاء في رواية الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال لعدي بن حاتم : « أسلم تسلم - ثلاثا - قال قلت : إني على دين ، قال : أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : نعم ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟ قلت : بلى ، قال : فإن هذا لايحل لك في دينك ، قال : فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها[3] .

مواقف وعبر في هذا الخبر :

أولا : معاملة رسول الله ﷺ الكريمة لأخت عدي بن حاتم حيث بقيت معززة مكرمة ، ثم كساها النبي ﷺ وأعطاها ماتتبلغ به في سفرها ، وقد كان النبي ﷺ أبقاها لترى حياة المسلمين وتصف لأخيها أخلاقهم ومعاملاتهم .

(١) في رواية الإمام أحمد « من الحيرة » .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٣١٣ - ٣١٧ .

(٣) الفتح الرباني ٢١ - ١٩١ ، وذكره الهيثمي وقال : رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن حبيش وهو ثقة - مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وأخرجه الإمام البخاري مختصرا رقم ٣٥٩٥ ، كتاب المناقب (٦/ ٦١٠) .

وقد كان لهذه المعاملة الكريمة أثر واضح في قدوم أخيها وإسلامه ، وقد كان النبي ﷺ يحرص دائمًا على اجتذاب سادة القبائل إلى الإسلام حتى يكسب بذلك أقوامهم .

ثانيًا : تخلُّق النبي ﷺ بمكارم الأخلاق العالية كان أقوى العوامل التي جذبت عدي بن حاتم إلى الإسلام ، فقد رأى من رسول الله ﷺ مَظهرين من مظاهر التواضع . . أولهما : وقوفه الطويل مع امرأة كبيرة السن تحدثه في حاجتها ، وثانيهما : جلوسه على الأرض وتقديمه الوسادة لضيفه ليجلس عليها .

وقد كان عدي وهو مقبل على رسول الله ﷺ يحمل في تصوره أنه أحد رجلين . . إما نبي ، أو ملك ، لأن تبعية الناس له على هذا النطاق الواسع لاتكون إلا بأحد هذين العاملين ، فلما رأى تواضع النبي ﷺ البالغ انسلخ من ذهنه عامل الملك ، وبقي التصور الآخر وهو عامل النبوة .

وقد كان النبي ﷺ موفقا حينما انتقد عديًا في مخالفته للدين الذي يعتنقه ، حيث حصل لعدي اليقين بنبوة رسول الله ﷺ الذي يعلم من دينه مالايعلمه الناس من حوله .

ثم لما تبين للنبي ﷺ أن عديا قد حصل عنده اليقين بنبوته تطرق إلى المعوقات التي تحول بين بعض الناس واتباع الحق حتى مع معرفتهم بأنه حق ، ومنها ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم ، وماهم فيه من الفقر ، فأبان له النبي ﷺ بأن الأمن سيشمل البلاد حتى تخرج المرأة من العراق إلى مكة من غير أن تحتاج إلى حماية أحد وأن دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين ، وكان عدي مندهشا لهذا الخبر ، لكنه قد ثبت له صحة نبوة رسول الله ﷺ وأنه لايقول إلا حقا فصدقه في ذلك ، كما أبان له ﷺ أن المال سيفيض حتى لايقبله أحد .

فلما زالت عن عدي هذه المعوقات وعلم أن وضع المسلمين آنذاك لن يستمر على ماهو عليه انقشعت عنه الحجب فأسلم حالاً .

وهكذا كان النبي ﷺ موفقا كل التوفيق في دعوته حيث كان خبيرا بأدواء النفوس ودوائها ، ومواطن الضعف فيها وأزمَّة قيادها ، فكان يعامل كل إنسان بما يلائم علمه وفكره ومايتسجم مع مشاعره وأحاسيسه ، حتى استطاع أن يجتذب أكابر الناس وسادتهم بالطرق التي يراها تؤثر فيهم وبذلك دخل الناس في دين الله أفواجا .

ثالثًا : في انتقاد النبي ﷺ عديا في دينه السابق عبرة ، فالرسول ﷺ لم ينتقد الدين نفسه مع كونه غير صحيح وقد نُسخ بالإسلام . . لم ينتقد الركوسية نفسها لأن عديا لم يكن مستقيما على ذلك الدين فكأنه لا دين له .

ومن هنا نعلم بأن التدين الحقيقي ليس بمجرد الانتساب وإظهار الولاء ، وإنما يكون بالاستقامةعلى تكاليف الدين وعدم سلوك ماينافضه .

وكما كان عدي على غير دين حقيقةً لأنه لم يستقم على ذلك الدين الذي انتسب إليه فكذلك من يظهر الانتساب للإسلام ولكن لايطبق أحكامه أو يرتكب ماينافضه فإنه لايكون مسلما حقا .

وكما كان عدي بكونه غير مستقيم على دينه السابق يعتبر دعاية سيئة لذلك الدين ومنفِّرا عن اعتناقه فكذلك من ينتسبون إلى الإسلام وسلوكُهم في هذه الحياة يتناقض مع أحكامه وآدابه ، فإنهم بذلك يصدون الناس عن الإسلام .

* * *

٥ - سرية جرير بن عبد الله إلى ذي الخَلَصة -

أخرج الإمام البخاري من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : « قال لي رسول الله ﷺ : ألا تُريحُني من ذي الخلصة؟ فقلتُ : بلى . فانطلقتُ في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل وكنتُ لاأثبُتُ على الخيل ، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ ، فضرب يدهُ على صدري حتى رأيتُ أثرَ يده في صدري وقال : اللهم ثبته ، واجعله هاديًا مهديًا ، قال : فما وقعتُ عن فرس بعدُ .

وكان ذو الخلصة بيتًا باليمن لخثعم وبجيلة فيه نُصُبٌ تُعبد، يقال له الكعبة ، قال : فأتاها فحرَّقها بالنار وكسَرَها .

قال : ولما قدم جريرٌ اليمنَ كان بها رجلٌ يستقسمُ بالأزلام ، فقيل له : إنَّ رسول رسول الله ﷺ هاهنا ، فإن قدر عليك ضربَ عنقك . قال : فبينما هو يضربُ بها إذ وقف عليه جرير فقال : لتكسرَنَّها ولتشهدن أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنُقك . قال : فكسرها وشَهِدَ . ثم بعث جريرٌ رجلاً من أحمس يُكنى أبا أرْطاةَ إلى النبي ﷺ يبشرهُ بذلك . فلما أتى النبي ﷺ قال: يارسول الله ، والذي بعثك بالحق ماجئتُ حتى تركتها كأنها جملٌ أجرَب[1] ، قال فبرَّك النبي ﷺ على خيل أحمسَ ورجالها خمس مرات» [2] .

---

(١) يعني أنها أصبحت سوداء من الحريق كالجمل الأجرب إذا طُلي بالقطران - فتح الباري٨/ ٧٣- .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٥٧ (٨/ ٧٠) .

وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في فضائل الصحابة رقم ٢٤٧٦ (٤/ ١٩٢٥) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : عبرة في بركة النبي ﷺ ودعائه ، حيث وضع يده على صدر جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ودعا له بالثبات ، فأصبح جرير لايسقط من الخيل وكان قبل ذلك لايثبت عليها ، وهذا من شواهد نبوة رسول الله ﷺ .

ثانيًا : موقف لجرير بن عبد الله ومن معه من فرسان قبيلة أحمس حيث قاموا بتحطيم صنم « ذي الخَلَصة » وتحريقه ، وإقرار الإسلام في بلاد خثعم وبجيلة وإزالة معالم الجاهلية منها مثل الاستقسام بالأزلام .

وهكذا نجد أن رسول الله ﷺ بعد فتح مكة صار يبعث البعوث لتحطيم الأصنام وإزالة معالم الجاهلية من بلاد العرب ، فتم تحطيم صنم العزى ومناة وسواع والخُمْس وذي الخلصة وغيرها من الأصنام الصغيرة، وذلك للقضاء على منابع الشرك وإقرار التوحيد .

* * *

مواقف وعبر
فـى غــزوة تبــوك

١ – سبب غزوة تبوك وتجهيز الجيش لذلك –

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : قالوا : كانت الساقطة – وهم الأنباط – يقدمون المدينة بالدرمك [١] والزيت في الجاهلية وبعد أن دخل الإسلام ، فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم ، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط ، فقدمت قادمة فذكروا أنَّ الروم قد جمعت جموعًا كثيرةً بالشام ، وأنَّ هرقل قد رزَق أصحابه لسَنَة ، وأجلبت معه لَخْمٌ ، وجُذام ، وغَسَّان ، وعاملة . وزحفوا وقدّموا مُقدِّماتهم إلى البَلْقاء وعسكروا بها ، وتخلَّف هرقْل بحمْص . ولم يكن ذلك ، إنما ذلك شئٌ قيل لهم فقالوه . ولم يكن عدوٌّ أخوف عند المسلمين منهم ، وذلك لما عاينوا منهم – إذ كانوا يقدمون عليهم تُجارًا – من العُدَد والعُدَّة والكُراع [٢] .

وكان رسول الله ﷺ لايغزو غزوةً إلاَّ ورّى بغيرها . لئلاَّ تَذهب الأخبار بأنَّه يُريد كذا وكذا ، حتى كانت غزوة تَبوك ، فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد ، واستقبل سَفَرًا بعيدًا ، واستقبل غُزّى وعَدَدًا كثيراً ، فجلَّى للناس أمْرهم ليتأهبوا لذلك أهْبَةَ غزوهم ، وأخبر بالوجه الذي يُريد .

وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى غزوهم ، فبعث إلى أسلمَ بُرَيدة ابن الحُصَيب وأمره أن يبلغ الفُرْع . وبعث أبا رُهم الغفاريّ إلى قومه أن يطلبهم ببلادهم ، وخرج أبو واقد الليثي في قومه ، وخرج أبو الجَعْد الضَّمْريّ في قومه بالساحل ، وبعث رافع بن مكيث ،

---

(١) الدرمك الدقيق الأبيض .

(٢) أي الخيول .

وجُنْدُب بن مكيث في جُهَينة ، وبعث نُعَيم بن مَسعود في أشْجَع ، وبعث في بني كعب بن عمرو بُدَيل بن ورْقاء ، وعمرو بن سالم ، وبشر ابن سفيان ، وبعث في سُليم عدة ، منهم العبّاس بن مرداس[1] .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٣/ ٩٩٠ .

٢ – مواقف عالية للصحابة في الإنفاق –

أخرج الإمام أبو داود من حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أمرنا رسول الله ﷺ يوما أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ماعنده، فقال له رسول الله ﷺ: ماأبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا [١].

وأخرجه الإمام الترمذي من حديث زيد بن أسلم عن أبيه وذكر مثله. وقال: هذا حديث حسن صحيح [٢].

وذكره الواقدي ضمن خبر عن إنفاق الصحابة في تجهيز جيش تبوك، وذكر فيه أيضاً إنفاق العباس بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي، رضي الله عنهم [٣].

ومما جاء في إنفاق عثمان رضي الله عنه على ذلك الجيش ما أخرجه الإمام الترمذي من حديث عبد الرحمن بن حُباب قال: شهدتُ النبي ﷺ وهو يحثُّ على جيش العُسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يارسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضَّ على

---

(١) سنن أبي داود، الزكاة، رقم ١٦٧٨ (٢/ ٣١٢ – ٣١٣).

(٢) سنن الترمذي، المناقب، رقم ٣٦٧٥ (٥/ ٦١٤ – ٦١٥).

(٣) مغازي الواقدي ٣/ ٣٩١.

الجيش فقام عثمان بن عفان فقال : يارسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال : يارسول الله عليَّ ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزلُ عن المنبر وهو يقولُ : ماعَلَى عثمان ماعَمل بعد هذه ، ماعَلَى عثمان ماعَملَ بعد هذه .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريبٌ من هذا الوجه لانعرفهُ إلا من حديث السكن بن المغيرة (١) .

وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد - واللفظ له - والترمذي من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنهما قال : جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال : فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول : ماضرَّ ابن عفان ماعمل بعد اليوم - يرددها مراراً - (٢) .

في هذه الأخبار مواقف منها :

أولا : ماقام به رسول الله ﷺ من جمع المسلمين وحثهم على الإنفاق في سبيل الله تعالى ، وكان النبي ﷺ يقوم بذلك في حال احتياج المسلمين ، إما لتجهيز جيش كبير كجيش تبوك ، وإما لجائحة وقعت على بعض المسلمين .

وبهذه الطريقة كان يتم تجهيز الجيوش وتأمين المال اللازم لذلك .

لقد كان ذلك يتم بكلمات معدودات يستثير بها النبي ﷺ المشاعر

---

(١) سنن الترمذي ، المناقب رقم ٣٧٠٠ (٥/ ٦٢٥- ٦٢٦) .

(٢) مسند أحمد ٥/ ٦٣ ، سنن الترمذي المناقب رقم ٣٧٠٢ (٥/ ٦٢٦) .

ويستنهض بها الهمم فتتشوق قلوب المؤمنين إلى بلوغ أعلى الدرجات من الإيمان ، وذلك لما ينفقونه من أموالهم في سبيل الله تعالى .

وبهذا يكون النبي ﷺ قد جمع بين أمرين :

الأول : الحصول على المال الذي به يتم تجهيز الغزاة في سبيل الله تعالى ، والثاني : دفع المؤمنين إلى التنافس في أداء هذه العبادة المهمة وهي الإنفاق في سبيل الله جل وعلا عن طواعية ورغبة في رضوان الله سبحانه والدار الآخرة ، ولو أنه فرض على جميع المؤمنين مبلغا معينا ولو كان زهيدا فإنه يحصل الأمر الأول وهو الحصول على المال الكافي ولكن يتخلف الأمر الثاني وهو أداء هذه العبادة العظيمة .

كما أن هذه السنة النبوية يترتب عليها أمر مهم وهو ظهور أهل الإيمان القوي على مراتبهم في ذلك ليكونوا بعد ذلك موضع الثقة في إسناد الأمور المهمة إليهم حسب كفاءاتهم ، وليكونوا بهذا البذل السخي قدوة صالحة لمعاصريهم ، وللأجيال التي تأتي بعدهم .

وهذه السنة النبوية لم تقتصر على حث المسلمين على الإنفاق على الغزاة في سبيل الله تعالى ، ولكنها تجاوزت ذلك إلى حث المسلمين على الإنفاق لإنقاذ المعوزين والفقراء من المسلمين ، ومما يبين ذلك ما أخرجه الإمام مسلم والنسائي من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : « كنا في صدر النهار مع رسول الله ﷺ فجاءه قوم عراة مجتابي النمار [1] أو العباء ، مُتَقَلِّدي السيوف ، عامتهم من مضر - أو كلهم من مضر - فتمعَّر وجه النبي ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم

(١) أي لابسي النمار وهي ثياب مخططة من مآزر الأعراب .

خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨] تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كُوَمين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ تهلَّل كأنه مُذْهَبَه، فقال رسول الله ﷺ: « من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » [1].

وهكذا رأينا كيف استطاع النبي ﷺ ببلاغته العالية وحكمته الفائقة أن يستخرج من الأغنياء والمتوسطين مايرفع به من مستوى الفقراء ويسد خلتهم.

ثانيا: موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما جاء بما له كله وأنفقه في سبيل الله تعالى، وهو بهذا يعتبر أعظم المتصدقين، وإن المتأمل ليعجب كيف تصدق بماله كله، ألا خطر بباله احتياج أهله في غيابه؟! ثم ألا خطر بباله احتياجه إلى المال في المستقبل؟! بلى، سيخطر بباله ذلك كأي بشر، ولكنَّه وأمثاله من الكمَّل يرتِّبون الأمور

(١) صحيح مسلم، الزكاة، رقم ١٠١٧ (ص ٧٠٤ – ٧٠٥)، سنن النسائي، الزكاة ٥/ ٧٥.

حسب أولوياتها ، وقد رأى بثاقب بصره الموجَّه من إيمانه القوي أن حاجة المسلمين الطارئة أولى من حاجته وحاجة أهله المستقبلية .

وقد ساعده على تقرير هذا القرار الذي يعتبر كبيرا في حياة الناس قوة ثقته بالله عز وجل بأن الرزق بيده ، وعظيم أمله بأنه تعالى لن يضيع أولياءه ، ثم ساعده على ذلك ما أخذ به نفسه وأهله من حياة الزهد والتقشف ، فليس عنده وأمثاله من النفقة الضرورية إلا اللباس ويكفيهم منه القديم وإن اخلولق ، والطعام ويكيفهم كمية من التمر والشعير وإن قل ذلك .

فهذه النفقة هي التي تدخل في عداد الضروريات أما ماعدا ذلك فإنه أمر كمالي تُقدَّم عليه حاجة المسلمين العامة الماسَّة آنذاك .

إن أبا بكر وهو يحمل ذلك المال الذي لايملك غيره لينفقه في سبيل الله تعالى كان يحمل همَّ دولة الإسلام الفتيَّة التي هددها الروم وعرب الشام ، فلنفرض جدلاً أن أبا بكر شحَّ بماله فلم يُخرج منه إلا القليل وأن الآخرين فعلوا مثل ذلك ولم يتمكن رسول الله ﷺ من تجهيز ذلك الجيش الضخم الذي أرهب الأعداء ، وأن الأعداء استهانوا بالمسلمين فغزوهم في عقر دارهم واكتسحوا بلادهم . . لنفرض أن ذلك وقع هل سينفع أبا بكر ماله الذي أعده للمستقبل وهل ستنفع الآخرين أموالهم ! .

إن فهم أبي بكر كان عظيمًا ولايعتبر متهورًا حينما أنفق ماله كله ولايعتبر بذلك قد ضيع أهله ومن يعولهم ، لأن التهور الكبير والضياع الخطير إنما هو بإمساك المال الذي قد يؤدي إلى هلاك الأمة ودمارها على يد الأعداء .

ثالثًا : موقف الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لم يبلغ نهاية الكمال مثل أبي بكر رضي الله عنه ، لكنه حاز درجة عليا من الكمال حيث أنفق نصف ماله ، ولو يشعر بأن تجهيز الجيش سيتوقف على بقية ماله لم يبخل به .

وموقف آخر يذكر له وهو اعترافه لأبي بكر بالفضل لسبقه وتقدُّمه عليه في الأعمال الصالحة ، والاعتراف للآخرين بالفضل والتقدم في مجال التنافس على الخير دليل على تجرد الإنسان من حظ النفس والتحكم في الهوى .

رابعًا : مواقف لعدد من الصحابة الأغنياء جاؤوا بأموال كثيرة سدوا بها حاجة كثير من المسلمين الضعفاء ومكنوا النبي ﷺ من الاستمرار في تجهيز الجيش ، وقد ذكر الواقدي في روايته أسماءهم رضي الله عنهم .

خامسًا : الموقف الكبير المدهش الذي أثار إعجاب النبي ﷺ وسروره البالغ وهو ماقدمه ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه من مال كثير جهز به النبي ﷺ جيش العسرة حتى عُرف عثمان بمجهِّز جيش العسرة ، ولقد تنوعت نفقته ، مابين مال نقدي وتجهيز للإبل التي تحمل المجاهدين تجهيزا كاملاً .

وهنا وفي مثل هذه الحال يظهر فضل الأغنياء المنفقين ، الذين بذلوا جهودًا كبيرة في التجارة لا من أجل جمع المال وكنزه لتكون المائة مائتين والألف ألفين وإنما ليكونوا بأموالهم رصيدا لاحتياج أمتهم ، فإذا هُدِّدت دولة الإسلام من الأعداء أو أصيب المسلمون بجوائح كانوا موئل

المحتاجين وأمل المتضررين ، والدرع الواقية للأمة بتجهيز الغزاة في سبيل الله تعالى .

لقد ذكر العلماء أن العبادات المتعدية التي يتعدى نفعها للمسلمين أفضل من العبادات الخاصة التي يقتصر نفعها على فاعلها وذلك في مجال النوافل ، وإن من أهم العبادات المتعدية الإنفاق في سبيل الله تعالى وما يسبق ذلك من استثمار المال وتنميته من أجل هذا الهدف النبيل .

* * *

٣ - موقف لعبد الله بن الجَدّ بن قيس -

(امتناع الجد بن قيس من الخروج)

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : وقال رسول الله ﷺ للجَدّ بن قيس : أبا وهب ، هل لك العامَ تخرج معنا لعلّك تَحْتَقب من بنات الأصفر؟ فقال الجَدّ : أو تأذن لي ولاتَفْتنّي ؟ فو الله ، لقد عرف قومي ما أحدٌ أشدّ عُجْبًا بالنساء منّي ، وإنّي لأخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفر لاأصبر عنهنَّ . فأعرض عنه رسول الله ﷺ فقال : قد أذنتُ لك ! فجاءَه ابنه عبد الله بن الجَدّ - وكان بَدْريًا ، وهو أخو مُعاذ بن جَبَل لأمه - فقال لأبيه : لمَ تَردّ على رسول الله ﷺ مقالته ؟ فو الله ما في بني سلمة أكثر مالا منك ، ولاتخرج ولاتحمل أحداً ! قال : يابُني ، مالي وللخروج في الريح والحرّ والعُسْرة إلى بني الأصفر ؟ والله ، ما آمن خوفًا من بني الأصفر وإنّي في منزلي بخُرْبَى ، فأذهبُ إليهم فأغزوهم ، إني والله يابني عالمٌ بالدوائر ! فأغلظ له ابنه ، فقال : لا والله ولكنه النفاق ، والله لينزلنَّ على رسول الله ﷺ فيك قرآنٌ يقرؤونه . قال : فرفع نعْله فضرب بها وجهه .

فانصرف ابنه ولم يُكلّمه ، وجعل الخبيث يُثبّط قومه ، وقال لجَبّار ابن صخر ونفر معه من بني سَلمَة : يابني سلمة لاتَنفروا في الحرّ ، يقول : لاتخرجوا في الحرّ زهادةً في الجهاد ، وشكّا في الحقّ ، وإرجافًا برسول الله ﷺ ، فأنزل الله عزَّ وجلّ فيه : ﴿ **وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ (١) . وفيه نزلت : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن**

---

(١) التوبة / ٨١ - ٨٢ .

يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [1] الآية ، أي كأنه إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر ، وليس ذلك به ، إنما تعذَّر بالباطل ، فما سقط فيه من الفتنة أكثر ، بتخلفه عن رسول الله ﷺ ورغبته بنفسه عن نفسه . يقول الله عز وجل : ﴿ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ يقول : إنَّ جهنَّم لَمنْ ورائه ، فلما نزلت هذه الآية جاءَ ابنه إلى أبيه فقال : ألم أقل لك إنَّه سوف ينزل فيك قرآن يقرؤه المسلمون ؟ قال : يقول : أبوه : اسكتْ عني يا لُكَعُ ! والله لاأنفعك بنافعة أبدًا ! والله لأنت أشدُّ عليّ من محمد ! [2] .

في هذا الخبر موقف لعبد الله بن الجَدِّ بن قيس رضي الله عنه حيث وقف لأبيه الذي أظهر نفاقه في أيام تجهيز جيش تبوك وأخذ يثبط الناس عن الخروج للجهاد ، فلامه ابنه عبد الله وشدد عليه وحذره من نزول القرآن بفضيحته ، وقد تحمل من أبيه الضرب على وجهه بالنعل ، فذلك من الأذى في سبيل الله تعالى .

ثم لما استمر عبد الله في لوم أبيه وتعنيفه أقسم أبوه أن لاينفعه بشيء من المال وهو يظن أن ذلك سيؤثر عليه ، ولكن النفوس المؤمنة لاتبالي بالدنيا كلها إذا ذهبت في سبيل خدمة الدين وإرضاء الله تعالى ورسوله ﷺ .

* * *

---

(١) التوبة / ٤٩ .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٩٢ - ٩٩٣ .

٤ - مثل من رغبة الصحابة في الجهاد مع عذرهم بالفقر -

أخرج الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسألهُ الحُملان لهم إذ هم معه في جيش العُسرة وهي غزوةُ تبوك ، فقلت : يانبيَّ الله إنَّ أصحابي أرسلوني إليك لتحملَهم ، فقال : والله لا أحملكم عَلَى شيء . ووافقته وهو غضبانُ ولا أشعُر ، ورجعتُ حزينًا مع منع النبيِّ ﷺ ومن مخافة أن يكون النبيُّ ﷺ وجد في نفسه عليّ ، فرجعتُ إلى أصحابي فأخبرتهمُ الذي قال النبي ﷺ ، فلم ألبثْ إلا سوُيعة إذ سمعتُ بلالاً ينادي : أي عبد الله بن قيس ، فأجبتهُ ، فقال : أجب رسول الله ﷺ يدعوك ، فلما أتيتهُ قال : خذ هذين القرينين - لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد - فانطلق بهنَّ إلى أصحابك فقل : إنَّ الله - أو قال : إنَّ رسول الله ﷺ - يحملكم على هؤلاء ، فاركبوهن ، فانطلقتُ إليهم بهنّ فقلت : إنَّ النبي ﷺ يحملكم عَلَى هؤلاء ، ولكني والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ لاتظنوا أني حدَّثتُكم شيئًا لم يقُله رسول الله ﷺ ، فقالوا لي : إنك عندنا لَمصدَّق ، ولنفعلنَّ ما أحببتَ ، فانطلقَ أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا قولَ رسول الله ﷺ ، مَنْعَهُ إياهم ثم اعطاءهم بعدُ ، فحدَّثوهم بمثل ماحدَّثهم به أبو موسى »(١) .

في هذا الخبر مثل من شوق الصحابة رضي الله عنهم إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، فهؤلاء الذين لايجدون مايحملهم معذورون في

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٤١٥ (٨/ ١١٠) .

القعود، ولكنهم لشوقهم إلى الجهاد يطلبون من النبي ﷺ أن يوفر لهم الإبل التي تحملهم ، وقد يسَّر الله تعالى لهم ذلك ، وتحققت أمانيهم في الخروج للجهاد .

* * *

٥ - مثل من الشوق البالغ إلى الجهاد -

(خبر البكائين)

قال ابن إسحاق : ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم . . وذكر أسماءهم إلى أن قال : فاستحملوا [1] رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة ، فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لايجدوا ماينفقون [2] .

وأخرجه الواقدي عن شيوخه وذكر نحوه ، وذكر أن اثنين منهم حملهما يامين بن عمير النضري على جمل له وزودهما كل واحد صاعين من تمر ، وأن اثنين منهما حملهما العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وأن بقيتهم وهم ثلاثة حملهم عثمان بن عفان رضي الله عنه [3] .

وقد نزل في هؤلاء البكائين قول الله تعالى ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ [التوبة : ٩١ ، ٩٢] .

هؤلاء السبعة من الفقراء الذين لايجدون مايركبون عليه من الإبل ليخرجوا مع المسلمين ، وهم معذورون في تخلفهم لعدم تمكنهم من

---

(١) أي طلبوا منه أن يحملهم .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠٠ .

(٣) المغازي للواقدي ٣/ ٩٩٣ - ٩٩٤ .

الخروج، ولكن الشوق البالغ يحدوهم إلى الخروج ، وحب الجهاد الذي خالط دماءهم يدفعهم إلى محاولة الحصول على مايحملهم ، ولكن النبي ﷺ يعتذر منهم لأن كل ما حصل عليه من مال وإبل أعطاه للمجاهدين .

وينصرف هؤلاء من عند النبي ﷺ وقلوبهم في حسرة على ترك الجهاد وأسف على القعود عن إخوانهم المجاهدين ، ولقد كان الأسى شديدًا على قلوبهم ، الأمر الذي عبروا عنه بالدموع الغزيرة التي فاضت من أعينهم ، ولكن الله تعالى يسَّر أمرهم حيث حصلوا من أهل المعروف والإحسان على ما يحملهم مع إخوانهم المجاهدين .

* * *

٦ – موقف لعُلْبة بن زيد بن حارثة من البكائين –

ذكر الحافظ ابن حجر أن الحافظ ابن مندة روى من حديث أبي عيسى بن جبر قال : كان علبة بن زيد بن حارثة رجلا من أصحاب النبي ﷺ ، فلما حض على الصدقة جاء كل رجل منهم بطاقته وماعنده ، فقال علبة ابن زيد : اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به ، اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك ، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى أين المتصدق بعرضه البارحة ؟ فقام علبة ، فقال : « قد قُبلتْ صدقتك » .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر عدة طرق لهذا الخبر ، ثم ذكر أن له شاهدًا صحيحًا إلا أنه لم يُسَمَّ فيه [١] .

في هذا الخبر مثل من الحب الكبير للعمل الصالح الذي يتنافس فيه المتنافسون من السابقين إلى الخيرات ، فقد كان الصحابة يتنافسون في الصلاة والذكر والصيام وغير ذلك من الأعمال الصالحة المتيسرة لهم ، ولكن حينما جاء التنافس في الإنفاق في سبيل الله صار فرسان الحلبة فيه هم الأغنياء والمتوسطون وقعد عنه الفقراء ، فلما رأى ذلك علبة بن زيد وهو من الفقراء تاقت نفسه للإنفاق ليُسْهم في هذا العمل الصالح الذي حث عليه النبي ﷺ ولكن لم يكن في مقدوره ذلك فدعا بهذا الدعاء العجيب « اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به ، اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك » .

وهكذا يبلغ حب الخير والتنافس فيه عند هذا الصحابي الجليل حدا شغل تفكيره حتى كان يفكر به في الليل ولقد تفتق ذهنه من ألم الحرقة

---

(١) الإصابة ٢/ ٤٩٣ .

وكثرة التفكير في هذا الأمر إلى أن يتصدق بعرضه على من ناله من عباد الله تعالى .

لقد تصدق بشيء مَا ولكن هل تقبل هذه الصدقة ؟ وهل يكون في عداد السابقين بالخيرات الذين بذلوا من أموالهم ؟ هذا مارجاه علبة بن زيد ، وهذا هو الذي كان في ميسوره .

ولقد كان الأمر من الأهمية بحيث نزل فيه الخبر من السماء على رسول الله ﷺ حيث بشَّر علبة بأن صدقته تلك قد قبلها الله تعالى .

* * *

٧ - صبر الصحابة على الشدائد ومعجزة لرسول الله ﷺ -

أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة أو عن أبي سعيد رضي الله عنهما (شَكَّ الأعمشُ) قال : لما كان غزوة تبوك ، أصاب الناس مجاعةٌ. قالوا : يارسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[١] فأكلنا وادَّهنَّا . فقال رسول الله ﷺ « افعلوا » قال فجاء عمر ، فقال : يارسول الله ! إن فعلتَ قَلَّ الظهرُ[٢] . ولكن ادعُهُم بفضل أزوادهم . ثم ادعُ الله لهم عليها بالبركة . لعل الله أن يجعل في ذلك[٣] . فقال رسولُ الله ﷺ « نعم » قال فدعا بنطع[٤] فبسطه . ثم دعا بفضل أزوادهم .

قال : فجعل الرجل يجيءُ بكفٍّ ذُرَة . قال ويجيءُ الآخرُ بكفِّ تمر. قال ويجيءُ الآخرُ بكسرة . حتى اجتمع على النطع من ذلك شيءٌ يسيرٌ . قال فدعا رسولُ الله ﷺ عَلَيه بالبركة . ثم قال « خذوا في أوعيتكم» قال فأخذوا في أوعيتهم . حتى ماتركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه . قال فأكلوا حتى شبعُوا . وفضلت فضلةٌ . فقال رسولُ الله ﷺ « أشهد أن لا إله إلا اللهُ ، وأني رسولُ الله . لايَلقَى اللهَ بهما عبدٌ، غير شاكٍّ ، فيُحجبَ عن الجنَّة »[٥] .

في هذين الخبرين بيان شيء مما كان يعاني منه الصحابة رضي الله عنهم من الشدائد ، حيث تعرضوا للجوع الشديد والعطش الشديد مع

(١) يعني الإبل ، والأصل فيها الإبل التي يستقى عليها .

(٢) أي الدواب التي تركب ، سميت ظهرا لكونها يركب ظهرها .

(٣) يعني بركة ، حذف المفعول به لظهوره .

(٤) أي ببساط من جلد .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، رقم ٤٥ (١/ ٥٦-٥٧) .

مـايعـانونه من حـرارة الجو ، ولـم يكن رسـول الله ﷺ من هـذه الشـدائد بمعـزل ، ولـم يكن يفـضل نفسـه عليـهم بشيء من أمـور الدنيا ، بل كـان يقـاسي من شدة الحـرّ مايقـاسون ، ويجوع كـما يجوعـون ويعطش كـمـا يعطشـون ، وكـان هذا يخفف على الصـحابة بعض ما يقـاسـون ، إذ أنهم ينسـون أنفسـهم في جانب النبي ﷺ الذي يفـدونه بأرواحـهـم وجـمـيع مـا يملكون ، إلى جانب مايعتقدون به من احتساب الأجر عند الله تعالى .

وفي هذين الخبرين معجزة للنبي ﷺ وذلك في تكثير الطعام ببركة دعـائه ، وإن في هذه المعـجـزة وغـيـرها من مـعـجـزات الـنبي ﷺ عـبرة للمعتبرين وآيات عظيمة للمستبصرين .

* * *

٨ – مثل من انتصار الإيمان على هوى النفس –
(خبر أبي خيثمة)

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أياما إلى أهله في يوم حارّ ، فوَجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[١] ، قد رشت كلُّ واحدة منهما عريشها ، وبرَّدت له فيه ماءً ، وهيأت له فيه طعاما فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وماصنعتا له ، فقال : رسول الله ﷺ في الضِّح [٢] والريح والحرّ ، وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد ، وطعام مُهيَّأ وامرأة حسناء ، في ماله مقيم ، ماهذا بالنَّصَف ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فَهَيِّئَا لي زادا ، ففعلتا ، ثم قدَّم ناضحه[٣] فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تَبوك ، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُميرُ بن وهب الجُمحي في الطريق ، يطلب رسول الله ﷺ ، فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك ، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب : إن لي ذنبا ، فلا عليك أن تَخَلَّف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق مُقبل ، فقال رسولُ الله ﷺ : كن أبا خيثمة ، فقالوا : يارسول الله هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : أولى لك يا أبا خيثمة[٤] . ثم أخبر رسول

---

(١) أي بستانه .

(٢) أي في الشمس .

(٣) أي جمله

(٤) أي أجدر بك .

الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير .

قال ابن هشام : وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً ، واسمه مالك بن قيس :

لَمَّا رأيتُ الناسَ في الدين نافقوا   أتيتُ التي كانت أعفَّ وأكْرما
وبايعتُ باليُمنَى يدي لمحمَّد   فلم أكتسبْ إثمًا ولم أغْشَ مَحْرما
تركتُ خَضيبًا في العريش وصرْمةً   صفايا كرامًا بُسْرُها قد تحمَّما[1]
وكنتُ إذا شكَّ المنافقُ أسمحتْ   إلى الدين نفسي شطره حيثُ يَمَّما[2]

في هذا الخبر صورة من محاسبة النفس في حال حضور القلب ويقظة الضمير ، فقد رأى أبو خيثمة رضي الله عنه ما أُعدَّت له زوجتاه من الماء البارد والطعام مع الظل المبرد والإقامة فتذكر رسول الله ﷺ وماهو فيه من التعرض للشمس والريح والحر فأبصر وتذكر وتيقَّظ ضميره وحاسب نفسه ، ثم عزم على الخروج ، وخرج وحده يقطع الفيافي والقفار حتى التقى بعمير بن وهب الجمحي ولعله كان قادما من مكة .

هذه الصورة تبين لنا مثلا من سلوك المتقين الذين تمر عليهم لحظات ضعف يعودون بعدها أقوى إيمانا مما كانوا عليه إذا تذكروا وراجعوا أنفسهم وفي بيان ذلك يقول الله تبارك وتعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [**الأعراف** : ٢٠١] .

(١) خضيبا عنى به امرأته أي مخضبة ، وصرمة أراد بها النخل المصروم أي المجدود ، وصفايا جمع صفي وهو المنتقى المختار ، وتحمم أي قرب وقت إرطابه .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠٤ - ٢٠٦ .

لقد تذكر أبو خيثمة رسول الله ﷺ الذي كان في شعوره أنه يحبه أكثر مما يحب نفسه ، ولكن ماباله هذه المرة يُؤثر نفسه بالراحة والمتعة ورسول الله ﷺ يقاسي الشدائد ؟ !

لقد تذكر سريعًا وخرج لعله يدرك مافاته ، وظل يشعر بالذنب حتى وصل إلى النبي ﷺ في تبوك وحصل على رضاه وسروره .

* * *

٩ - مثل من قوة الإيمان وتحمل الشدائد -
(خبر أبي ذر الغفاري)

أخرج الإمام البيهقي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل لايزال يتخلفُ الرجلُ ، فيقولون : يارسول الله تخلف فلان ، فيقول : دعوه إن يك فيه خير فسيلحقهُ الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه حتى قيل : يارسول الله تخلف أبو ذر ، وابطأ به بعيرهُ ، فقال : دعوه إن يك فيه خيرٌ فسيلحقهُ الله بكم ، وإن كان غير ذلك فقد أراحكم منه ، فيلزم أبو ذر بعيره فلما أبطأ عليه ، أخذ متاعه فجعله على ظهره ، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشيًا ، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله ، ونظر ناظرٌ من المسلمين ، فقال : يارسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر ، فلما تأمله القوم ، قالوا : يارسول الله هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ « يرحم الله أبا ذرٍّ يمشي وحده ، ويموتُ وحده ، ويُبعث وحده » .

فضرب الدهر من ضربه[١] ، وسُيِّر أبو ذر إلى الرَّبذة ، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه : إذا متُّ فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق فأول ركب يمرُّون بكم فقولوا : هذا أبو ذر .

فلما مات فعلوا به كذلك فطلع ركبٌ فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره ، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة ، فقال : ماهذا فقيل : جنازة أبي ذر ، فاستهل ابن مسعود يبكي ، فقال : صدق

---

(١) هذا من قول الرواي عن ابن مسعود وهو محمد بن كعب القرظي .

رسول الله ﷺ : « يرحم الله أبا ذر ! يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

فنزل فوليَه بنفسه حتى أجنّهُ[1] .

في هذا الخبر مثل مما تعرض له أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من الصعوبات والمخاطر التي نجاه الله منها وقواه بالصبر عليها ، لقد بذل أبو ذر جهدًا كبيرًا في المشي على قدميه وهو يحمل متاعه على ظهره حتى لحق بالنبي ﷺ والمسلمين وهم نازلون في أحد منازل السفر .

وفي هذا الخبر عبرة من إخبار الرسول ﷺ عن أبي ذر بأنه يموت وحده، وقد مات وحده ليس معه أحد من أصحابه .

كما أن فيه دلالة على علم ابن مسعود رضي الله عنه وقوة ذاكرته وسرعة استحضاره لما حفظ ، حيث تذكر بعد سنوات عديدة حديث رسول الله ﷺ عما سيئول إليه أمر أبي ذر في آخر حياته رضي الله عنه .

* * *

(١) دلائل النبوة ٥/ ٢٢١ - ٢٢٢ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ٢١٠ - ٢١٢ .

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وصححه ، وقال الذهبي : فيه إرسال - المستدرك ٣/ ٥٠- ٥١ - .

١٠ - معجزة لرسول الله ﷺ ومثل من قسوة قلوب المنافقين -

قال الواقدي : حدثني ابن أبي سَبْرَة ، عن يونس بن يوسف ، عن عُبيد بن جُبير ، عن أبي سعيد الخدري قال : رأيت رسول الله ﷺ أوضع راحلته حتى خلَّفها . قال : وارتحل رسول الله ﷺ لما أصبح ولا ماءَ معهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ على غير ماء .

قال عبد الله بن أبي حدْرَد : فرأيت رسول الله ﷺ استقبل القبلة فدعا - ولا والله ما أرى في السماء سحابًا - فما برح رسول الله ﷺ يدعو حتى إنِّي لأنظر إلى السَّحاب تأتلف من كل ناحية ، فما رام مقامه حتى سحَّتْ علينا السماء بالرَّواء [1] ، فكأني أسمع تكبير رسول الله ﷺ في المطر . ثم كشف الله السماء عنا من ساعتها وإن الأرضُ إلا غُدُرٌ تناخسُ [2] ، فسقى الناس وارتووا عن آخرهم ، وأسمع رسول الله ﷺ يقول : أشهدُ أني رسول الله ! فقلت لرجل من المنافقين : ويحك ، أَبَعْدَ هذا شيءٌ ؟ فقال : سحابةٌ مارّة ! وهو أوس بن قَيْظي [3] .

وأخرج الإمام البيهقي نحوه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثنا من شأن ساعة العُسرة ، فقال عمر : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إنْ كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، حتى إنْ كان

---

(١) أي الماء الكثير .

(٢) أي يصب بعضها في بعض .

(٣) مغازي الواقدي ٣/ ١٠٠٨ - ١٠٠٩ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكره نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ١٠٨ .

الرجل لينحر بعيره فيعصرُ فرثهُ فيشربه، ويجعل مابقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يارسول الله ! إن الله عز وجل قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادع الله لنا ، قال : أتحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع يديه فلم يُرجعهما حتى قالت السماءُ فأظلتْ ثم سكبت فملؤوا مامعهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازوت العسكر(١) .

ويحتمل أن يكون الخبران لواقعة واحدة وروى كل صحابي بعض الخبر ويحتمل أنهما واقعتان ، وفيهما معجزة ظاهرة للنبي ﷺ في نزول المطر بشكل مفاجيء ببركة دعائه ، وقد فهم الصحابة من ذلك أنه عبرة لأولي الأبصار ففي آخر الخبر الأول يخاطب عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه أحد المنافقين ويقيم عليه الحجة بذلك على صحة رسالة رسول الله ﷺ ولكن المنافقين قد طبع الله على قلوبهم فلا يتذكرون ولايعتبرون .

* * *

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٢٣١ .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار ثقات -مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤ - ١٩٥ - .

١١ – مثل من صبر رسول الله ﷺ على أذى المنافقين – (خبر زيد بن اللُّصَيت)

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته ، فخرج أصحابه في طلبها ، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه ، يُقال له عمارة بن حزم ، وكان عَقَبيًا بدْريًا ، وهو عمُّ بني عمرو بن حزم ، وكان في رَحله زيدُ بن اللُّصَيت القَيْنقاعي ، وكان منافقًا (١) .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد، ، عن رجال من بني عبد الأشهل ، قالوا : فقال زيد بن اللُّصَيت ، وهو في رحل عُمارة وعمارة عند رسول الله ﷺ : أليس محمد يزعمُ أنه نبي ، ويخبركم عن خبر السماء ، وهو لايدري أين ناقته ؟ فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده : إن رجلا قال : هذا محمدٌ يخبركم أنه نبيّ ، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لايدري أين ناقته ، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها ، وهي في هذا الوادي ، في شعب كذا وكذا ، قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها ، فذهبوا ، فجاؤوا بها . فرجع عُمارة بن حزم إلى رحله ، فقال : والله لعَجَبٌ من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفًا ، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا ، للذي قال زيدُ بن لُصيت ، فقال رجل ممن كان في رحل عُمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ : زيدٌ والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي ، فأقبل عُمارة على زيد يُجافي عُنقه ويقول : إليّ عباد الله ، إنّ في

(١) قال ابن هشام : ويقال : ابن لُصيب بالباء .

رحلي لـداهيـةٌ ومـا أشـعـر ، اخـرُج أيْ عـدوّ الله من رحلي ، فـلا تصحَبني [1] .

وهكذا كان المنافقون يؤذون رسول الله ﷺ ويغتنمون أي فرصة تمر بهم لمحاولة التشكيك في صحة رسالته وخاصة اليهود منهم كهذا الرجل الذي قال هذه المقالة وهو زيد بن اللصيت القينقاعي ، فقد أسلم هذا وأمثاله نفاقا ليكيد للمسلمين من داخل صفوفهم ، وكان النبي ﷺ يصبر على أذاهم ولايعاملهم معاملة الكفار لاعتبارات دعوية مر ذكرها في غزوة بني المصطلق عند قوله ﷺ « لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٣/ ١٠٠٩ - ١٠١٠ - .

١٢ - معجزة لرسول الله ﷺ وموقف سيء للمنافقين -

أخرج الإمام مسلم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك . فكان يجمعُ الصلاة . فصلى الظهر والعصر جميعًا . والمغرب والعشاء جميعًا . حتى إذا كان يومًا أخَّر الصلاة . ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا . ثم دخل ثم خرج بعد ذلك . فصلى المغرب والعشاء جميعًا . ثم قال « إنكم ستأتون غداً - إن شاء الله - عين تبوك . وإنكم لن تأتوها حتى يُضحى النهارُ . فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي » فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان . والعين مثل الشراك تَبِضُّ[1] بشيء من ماء . قال فسألهما رسولُ الله ﷺ « هل مسستُما من مائها شيئًا ؟ » قالا : نعم . فسبهما النبيُّ ﷺ ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول . قال ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا . حتى اجتمع في شيء . قال وغسل رسولُ الله ﷺ فيه يديه ووجههُ . ثم أعاده فيها . فجرت العينُ بماء مُنهمر - أو قال غزير شكَّ أبو عليّ أيهما قال - حتى استقى الناس . ثم قال « يُوشكُ يامعاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ماههنا قد مليءَ جنَانًا » [2] .

وهذا الخبر أيضًا يشتمل على موقف سيء للمنافقين حيث خالف رجلان منهم أمر رسول الله ﷺ .

كما أن فيه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ حيث كانت عين تبوك ضعيفة جدًا ، فجمع الصحابة من مائها شيئًا فشيئًا حتى اجتمع قليل من الماء

---

(١) الشراك هو سير النعل ، وتَبِضُّ أي تسيل .

(٢) صحيح مسلم ، الفضائل ، رقم ٧٠٦ (ص ١٧٨٤) .

فغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت بماء غزير أصبح يكفي لثلاثين ألف من المسلمين .

وإن في هذا لعبرة للمعتبرين وموعظة للمستبصرين .

* * *

١٣ - إسلام ذي البجادين وجهاده -

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : وكان عبد الله ذو البَجادين[١] من مُزينة ، وكان يتيمًا لا ماله له ، قد مات أبوه فلم يُورثه شيئًا ، وكان عمه مَيِّلاً[٢] ، فأخذه وكفله حتى كان قد أيسر ، فكانت له إبلٌ وغَنَمٌ ورقيق ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعلتْ نفسهُ تتوق إلى الإسلام ، ولايقدر عليه من عمّه ، حتى مضت السنون والمشاهدُ كلُّها .

فانصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة راجعًا إلى المدينة ، فقال عبد الله لعمّه : ياعمّ ، قد انتظرتُ إسلامك فلا أراك تُريد محمدًا ، فائذن لي في الإسلام ، فقال : والله ، لئن اتبعتَ محمدًا لا أترك بيدك شيئًا كنت أعطيتكه إلا نزعتهُ منك حتى ثَوْبَيك . فقال عبد العُزّى ، وهو يومئذ اسمه : وأنا والله مُتبع محمدًا ومُسلم ، وتاركٌ عبادة الحجر والوثَن ، وهذا ما بيدي فخُذْهُ ، فأخذ كلَّ ما أعطاه ، حتى جرده من إزاره ، فأتى أمه فقطعت بجادًا لها باثنين فائتزر بواحد وارتدى بالآخر .

ثم أقبل إلى المدينة وكان بورَقان - جبل من حمى المدينة - فاضطجع في المسجد في السحر ، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح ، وكان رسول الله ﷺ يتصفّح الناس إذا انصرف من الصبح ، فنظر إليه فأنكره ، فقال : من أنت ؟ فانتسب له ، فقال : أنت عبد الله ذو البجادَيْن ثم قال : انزل منِّي قريبًا . فكان يكون في أضيافه ويعلِّمه القرآن ، حتى قرأ قرآنًا كثيرًا ، والناس يتجهَّزون إلى تَبُوك ، وكان رجلاً صَيِّتًا ، فكان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقراءة ، فقال عمر : يارسول الله ، ألا تسمع إلى هذا

---

(١) البجاد : الكساء الغليظ الجافي ، كما ذكر ابن هشام . (السيرة النبوية ٤/ ٢١٩) .

(٢) أي ذا مال .

الأعرابي يرفع صوته بالقرآن حتى قد منع الناس القراءة ؟ فقال النبي ﷺ : دعهُ ياعمر فإنه خرج مُهاجراً إلى الله ورسوله .

قال : فلما خرجوا إلى تبوك قال : يارسول الله ، ادعُ الله لي بالشهادة . قال : أبلغني لحاء[1] سَمُرة . فأبلغه لحاءَ سمُرةَ ، فربطها رسول الله على عَضُده وقال : اللهم إني أحرم دمه على الكفار ! فقال : يارسول الله ، ليس أردتُ هذا . قال النبي ﷺ : إنَّك إذا خرجت غازيًا في سبيل الله فأخذتك الحُمَّى فقتلتك فأنت شهيد ، ووَقَصَتْك دابتُك فأنت شهيد ، لاتُبال بأيَّة كان . فلما نزلوا تَبوكًا فأقاموا بها أيّامًا تُوفِّي عبد الله ذو البجادين . فكان بلال بن الحارث يقول : حضرتُ رسول الله ﷺ ومع بلال المؤذن شُعلةٌ من نار عند القبر واقفًا بها ، وإذا رسول الله ﷺ في القبر ، وإذا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يُدليانه إلى النبي ﷺ وهو يقول : أدنيا إليّ أخاكما . فلما هيّأه لشقه قال : اللهم إنِّي قد أمسيت عنه راضيًا فارضَ عنه . قال : فقال عبد الله بن مسعود : ياليتني كنت صاحب اللَّحْد[2] .

في هذا الخبر موقف لعبد الله ذي البجادين رضي الله عنه ، وذلك فيما تحمَّله من أجل دخوله في الإسلام حيث سُلبَ ماله كله حتى ثيابه .

لقد وقع بين خيارين : إما أن يدخل في الإسلام ويذهب منه كل شيء من الدنيا ، وإما أن يبقى على الكفر وتبقى له حياته التي يعيش فيها و كل ما يملكه .

---

(١) أي قشرها .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ١٠١٣ - ١٠١٤ .

وأخرجه ابن إسحاق مختصرا - سيرة ابن هشام ٤/ ٢١٨ - ٢١٩ - .

ولكنه لقوة إيمانه وصدق توجهه لم يتردد بين الخيارين بل عزم على الإسلام وإن فقد كل شيء .

لقد هاجر هذا الشاب إلى المدينة وكانت له مكانة عند رسول الله ﷺ لَما قدَّم من تضحية كبيرة من أجل إسلامه ، وكان يعامله بلطف وحنان ، ومن ذلك أنه لما اشتكاه عمر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بسبب رفع صوته بالقرآن قال له : « دعه ياعمر فإنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله» ، يعني فهو يحتاج إلى لطف في المعاملة وتَغاضٍ عما يصدر منه من أخطاء لحداثة عهده بالإسلام .

لقد كان إيمان هذا الشاب قويا حينما طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله تعالى له بالشهادة ، إن الشهادة في سبيل الله تعالى غاية سامية لايصل إليها إلا من ارتفع مستوى إيمانهم وعظم يقينهم حتى أصبحوا كأنهم يشاهدون الجنة فهم يتُوقُون إلى الوصول إليها بأسرع طريق .

ولقد حصل عبد الله ذو البجادين رضي الله عنه على الشهادة من غير أن يُقْتَل وذلك حينما مات في تبوك ، وكان النبي ﷺ بشره قبل ذلك بأن من مات وهو خارج في سبيل الله تعالى فهو شهيد .

مات شهيداً وظفر برضَى رسول الله ﷺ عنه ودعائه له حتى تمنى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يكون مكانه .

* * *

١٤ - سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة -

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد ، فبعثه إلى أُكيدر دُومة [١] وهو أُكيدر بن عبد الملك ، رجل من كندة كان ملكا عليها ، وكان نصرانيًا ، فقال رسول الله ﷺ لخالد : إنك ستجده يصيد البقر [٢] . فخرج خالد ، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين ، وفي ليلة مُقمرة صائفة ، وهو على سطح له ، ومعه امرأته ، فباتت البقر تحكّ بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قطّ ؟ قال : لا والله ! قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لا أحد ، فنزل فأمر بفرسه فأُسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخٌ له يقال له حسان ، فركب وخرجوا معه بمَطاردهم ، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ ، فأخذته وقتلوا أخاه ، وقد كان عليه قَباء [٣] من ديباج مُخوّصٌ بالذّهب ، فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن أنس بن مالك ، قال : رأيت قَباء أكيدر ، حين قُدم به على رسول الله ﷺ ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله ﷺ : أتعجبون من هذا ؟ فو الذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا [٤] .

---

(١) دومة تقع شمال بلاد نجد وتسمى دومة الجندل .

(٢) يعني بقر الوحش .

(٣) القباء بفتح القاف ثوب مفتوح من الأمام .

(٤) وأخرج قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا الإمام البخاري من حديث أنس رضي الله عنه - صحيح البخاري ، كتاب الهبة ، رقم ٢٦١٥ (٥/ ٢٣٠) .

قال ابن إسحاق : ثم إن خالدًا قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ ، فحقن له دمه ، وصالحه عَلَى الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع إلى قريته ، فقال رجل من طيء - يقال له بُحَيرُ بن بجرة ، يذكر قول رسول الله ﷺ لخالد : إنك ستجده يصيد البقر ، وماصنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجَتْه ، لتصديق قول رسول الله ﷺ - :

تَبارك سائقُ البقرات إنِّي رأيتُ الله يهدي كلَّ هاد
فمن يكُ حائدًا عن ذي تَبوك فإنّا قد أُمرنا بالجهاد [1]

في هذا الخبر عبرة عظيمة ، وآية باهرة ، حيث أخبر النبي ﷺ خالد ابن الوليد رضي الله عنه بأنه سيجد أكيدر دومة يصيد البقر ، وفي حال وصول خالد إلى دومة ساق الله تعالى البقر حتى إنها لتَحكُّ بقرونها باب قصر أكيدر ، في مشهد أثار دهشة أكيدر وامرأته حيث لم يسبق أن حدث مثل ذلك قط .

ويخرج أكيدر ليكون أسيرًا بيد خالد بن الوليد ، ويتم ما قاله رسول الله ﷺ .

إن في هذا لعبرة لأصحاب العقول السليمة والآراء الحصيفة ، إنها آية باهرة تقود من لم يُسلم إلى الإسلام ومن أسلم إلى الثبات على دينه .

إن المنتظر من أصحاب العقول الراجحة أمام هذا المشهد أن يتساءلوا : من الذي أعلم النبي ﷺ بأن خالدًا سيجد أكيدر يصيد البقر ؟

ومن الذي ساق البقر في تلك الليلة لتصل إلى باب القصر مع وصول خالد في مشهد لم يسبق له مثيل ؟ ! .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٢١٥ - ٢١٧ .

أليس العقل السليم يشهد بأن الذي أعلم النبي ﷺ بذلك هو الله تعالى ، وأن الذي ساق البقر لتكون أمام القصر مع وصول خالد هو الله جل وعلا ؟ .

لقد أصبحت البقر تلك الليلة من جنود الله تعالى لأنها هي التي استخرجت ملك دومة من قصره وهيأته ومن معه لجيش المسلمين .

لقد أسهمت هذه الجنود في استيلاء المسلمين على قرى عامرة وحصون منيعة بأقل التكاليف حيث أصبح ملكها أسيراً بيد المسلمين بدلاً من أن يكون آسراً لجنود الله تعالى من البقر ، وبأسْر ملك تلك القرى تم الصلح معه من غير قتال .

وأخيراً موقف تربوي جليل من رسول الله ﷺ لأصحابه ، فحينما رآهم يتعجبون من قباء أكيدر ، وحينما خاف على بعضهم الميل إلى متاع الدنيا صرفهم حالاً إلى الآخرة وتذكُّر الجنة حيث قال : « أتعجبون من هذا؟ ! لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا » ، يعني إن كنتم رأيتم شيئًا من فتنة الدنيا فإن ذلك لايعادل شيئًا من نعيم الجنة .

واختيار سعد بن معاذ لضرب المثل به له إيحاء خاص ، فالميزة العظمى لسعد هي أنه قال كلمة الحق التي كرهها بعض قومه ولم يخش في الله لومة لائم ، فضَرْب المثل بسعد يعني إحداث تساؤل بين الصحابة ، لماذا ضُرب المثل به ، وسيكون الجواب حاضراً عند كبار الصحابة أهل البصيرة ليُتحفوا به الذين أسلموا بعد موت سعد ولم يحظوا بمعرفته ولابمعرفة موقفه العظيم حينما حكم على يهود بني قريظة .

* * *

١٥ - موقف لرسول الله ﷺ في الحزم مع أعداء الإسلام - (أصحاب مسجد الضّرار)

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ : وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا ، فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم ، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتي بجند من الروم ، فأُخرج محمداً وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي عليه الصلاة والسلام ، فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلي فيه ، وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله فيه ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ . إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[(١)] .

وأخرج أيضًا من طريق ابن إسحاق ، عن الزهري ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم ، قالوا : أقبل رسول الله ﷺ ، يعني من تبوك حتى نزل بذي أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يارسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحبّ أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال : إني على جناح سفر ، وحال شغل - أو كما قال رسول الله ﷺ -ولو قد

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٢٤ .

وهذا الإسناد من صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد صحح الحافظ ابن حجر إسنادها - فتح الباري ١٣/ ٢٧١ .

قدمنا أتيناكم إن شاء الله ، فصلينا لكم فيه ، فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي - أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلهُ ، فاهدماه وحرقاه ، فخرجا سريعين ، حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفًا من النخل ، فأشعل فيه نارًا ، ثم خرجا يشتدان ، حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن مانزل ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ إلى آخر القصة[1] ، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا . . وذكر أسماءهم[2] .

في هذين الخبرين موقف عظيم لرسول الله ﷺ في الحزم مع أعداء الله المنافقين ، والتخطيط الدقيق المحكم في القضاء على مؤامراتهم الخبيثة .

هؤلاء الأعداء الذين لبسوا لباس الإسلام وحاولوا الكيد له برفع بعض شعائره والعمل تحت ظلالها . . هؤلاء الأعداء يعملون تحت توجيهات أبي عامر الفاسق وهو عبد عمرو بن صيفي الأوسي ، وهو من زعماء الأوس في الجاهلية ، ولكنه خرج من المدينة مغاضبًا إلى مكة حينما انتشر الإسلام في المدينة ، وخرج مع المشركين في أُحُد كما سبق ، ومازال معاديًا للمسلمين يُؤلِّب عليهم حتى بعد أن ذهب إلى بلاد الروم ،

(١) يعني إلى آخر ماقصه الله تعالى عنهم في قوله ﴿والذين اتخذوا . . ﴾ سورة التوبة ١٠٧-١٠٨ .

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٢٣ .

وأخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق وذكر مثله - سيرة ابن هشام ٤/ ٢٢١ - .

وقد أوعز إلى عدد من المنافقين ببناء مسجد الضرار ليكون وكراً للإفساد كما جاء في هذه الروايات .

وقد بين الله تعالى أهدافهم من بناء المسجد بقوله ﴿ **والذين اتخذوا مسجد ضراراً** ﴾ أي محادَّة للمسجد الذي بُني على التقوى وهو مسجد قباء ﴿ **وكفراً** ﴾ يعني ولأجل خدمة الكفر باتخاذه معقلا لمحاربة الإسلام ﴿ **وتفريقًا بين المؤمنين** ﴾ يعني بين جماعة المؤمنين في الصلاة حيث كان أهل قباء جميعًا يصلون في مسجد واحد ﴿ **وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل** ﴾ يعني واستعداداً وترقبًا لقدوم أبي عامر الفاسق الذي حارب الله ورسوله من قبل ذلك الوقت .

ومما يبين أهدافهم الخبيثة من بناء هذا المسجد ما جاء في رواية الإمام البيهقي أن مجمع بن جارية وهو أحد الذين بنوا المسجد قال : إن هذا المسجد إذا بنيناه اتخذناه لسرِّنا ونجوانا ، ولايزاحمنا فيه أحد ، فَنَذْكُر ما شئنا ، ونُخيِّل إلى أصحاب محمد أنَّما نريد الإحسان[1] .

ومن هذه الأهداف الخطيرة يتبين لنا أن ما قام به رسول الله ﷺ من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل ، لأن بقاء معالم الجاهلية التي أنشئت لنشر مبادئها سواء كانت معلنة أو خفية يعني بقاء الجاهلية ، وإن مقاومة الجاهلية بمختلف الطرق مع بقاء معالمها قد يخفِّف من انتشارها ، لكنه لايقضي عليها من جذورها ، وإنما يقضي عليها إزالة معالمها الظاهرة خاصة مايكون وسيلة أو مكانا لاجتماع دعاة الضلال .

ولقد بين النبي ﷺ بهذا العمل السنة في القضاء على أي مشروع يراد

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٢٥٩ .

منه الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم ، فالداء العضال لايعالج بتسكينه والتخفيف منه ، وإنما يعالج بَحَسمه وإزالة آثاره ، حتى لايتجدد ظهوره بصورة أخرى .

وإن النتائج العملية التي ظهرت على إثر تطبيق الأمر النبوي الحازم لتدلُّنا على أن هذا العمل هو الموقف الحاسم لهذا المكر الخبيث وأمثاله من أعداء الإسلام حيث تفرق المنافقون بعد ذلك ، ومازال أمرهم يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عدد قليل ، ولم يُعرف عنهم بعد فشل هذا العمل الماكر أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لمعرفتهم المؤكدة بنتائج العمل عند انكشافهم .

* * *

١٦ - مواقف إيمانية وتربوية -
(خبر كعب بن مالك وصاحبيه)

أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب ابن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عَمي - قال سمعتُ كعب بن مالك يحدِّث حين تخلف عن قصة تبوك «قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها ، إنما خرج رسولُ الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكَرُ في الناس منها .

كان من خبري أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر حين تخلفتُ عنه في تلك الغزاة . والله ما اجتمعتْ عندي قبلهُ راحلتان قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريدُ غزوة إلا ورَّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسولُ الله ﷺ في حرّ شديد ، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا ، وعدُوًا كثيرًا ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتابٌ حافظ - يُريد الديوان - قال كعبٌ : فما رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ، مالم ينزل فيه وحيُ الله .

وغزا رسولُ الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمارُ والظلالُ، وتجهز رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع

ولم أقض شيئًا ، فأقول في نفسي : أنا قادرٌ عليه . فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا . فقلتُ : أتجهزُ بعدهُ بيوم أو يومين ، ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئًا . ثم غدوت ، ثم رجعت ولم أقض شيئًا . فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزوُ ، وهممتُ أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلتُ ، فلم يُقْدرْ لي ذلك ، فكنتُ إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله ﷺ - فطفتُ فيهم ، أحزنني أني لا أرى إلا رُجلاً مغموصًا عليه النفاقُ ، أو رجلا ممن عذر اللهُ من الضعفاء .

ولم يذكرني رسولُ الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك : مافعل كعبٌ ؟ فقال رجلٌ من بني سلمة : يارسول الله ، حبسه بُرداه ، ونظرهُ في عطفه . فقال معاذ بن جبل : بئس ماقلت ، والله يارسول الله ماعلمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي ، وطفقت أتذكرُ الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدًا ؟ واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي . فلما قيل : إنَّ رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل ، وعرفتُ أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم رسولُ الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

فجئته ، فلما سلمتُ عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ماخلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطيت جدلاً ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يُسخطك عليَّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تجدُ عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر ، والله ماكنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك . فقمت .

وثار رجالٌ من بني سلمة فاتَّبعوني فقالوا لي : والله ماعلمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذنبك ا ستغفار رسول الله ﷺ لك . فو الله مازالوا يُؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع فأكذب نفسي .

ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، رُجلان قالا مثل ماقلت ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك . فقلت من هما ؟ قالوا : مُرارةُ ابن الربيع العمري وهلالُ بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين قد شهدا بدراً فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي .

ونهى رسولُ الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنَبنا الناسُ ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم

وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهدُ الصلاة مع المسلمين ، وأطوفُ في الأسواق ، ولا يُكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا ؟ ثم أصلي قريبًا منه ، فأسارقهُ النظر ، فاذا أقبلتُ على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفتُّ نحوهُ أعرض عني . حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إلي ، فسلمت عليه ، فو الله ما ردَّ علي السلام . فقلت : يا أبا قتادة ، أنشُدُك بالله ، هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله ؟ فسكت . فعُدتُ له فنشدته فسكت . فعدت له فنشدته فقال : اللهُ ورسوله أعلم . ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

قال : فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطيّ من أنباط أهل الشام[1] ممن قدم بالطعام يبيعهُ بالمدينة يقول : من يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يُشيرون له : حتى إذا جاءني دفع إليّ كتابًا من ملك غسّانَ فإذا فيه : أما بعدُ فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالْحقْ بنا نواسك . فقلتُ لما قرأتُها : وهذا أيضًا من البلاء . فتيمَّمْتُ بها التَّنُّور فسجَّرته بها . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني فقال : إن رسولَ الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلتُ : أطلِّقها أم ماذا أفعلُ ؟ قال : لا . بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك . فقلت لأمرأتي : الْحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

قال كعبٌ : فجاءَت امرأةُ هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت :

---

(١) الأنباط هم الفلاحون سموا بذلك نسبة إلى استنباط الماء واستخراجه .

يارسول الله ، إن هلال بن أمية شيخٌ ضائع . ليس له خادم ، فهل تكرهُ أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لايقربك . قالت : إنه والله مابه حركة إلى شيء ، والله مازال يبكي منذُ كان من أمره ماكان إلى يومه هذا . فقال لي بعضُ أهلي لو استأذنت رسولَ الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه . فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، ومايُدريني مايقول رسولُ الله ﷺ إذا استأذنته فيها ، وأنا رجلٌ شابٌ .

فلبثتُ بعد ذلك عشر ليال حتى كملتْ لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا . فلما صليتُ صلاة الفجر صُبْحَ خمسين ليلة ، وأنا عَلَى ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالسٌ على الحال التي ذكر اللهُ : قد ضاقت عليَّ نفسي ، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوْفَى على جبل سَلْع بأعلى صوته : ياكعب بن مالك أبشر . قال فخررتُ ساجداً . وعرفت أن قد جاءَ فرج . وآذن رسولُ الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يُبشروننا ، وذهب قبَل صاحبَّي مبشرون ، وركض إليَّ رجلٌ فرسًا ، وسعى ساع من أسْلَم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت صوتهُ يبشرني نزعت له ثوبَيَّ فكسوته إياهما ببُشراه . والله ما أملك غيرهما يومئذ . واستعرتُ ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناسُ فوجًا فوجًا يهنوني بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك .

قال كعبٌ : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناس ، فقام إليَّ طلحةُ بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنَّاني ، والله ماقام إلي رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة . قال

كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرقُ وجهُهُ من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قال قلت : أمن عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله . وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجههُ حتى كأنه قطعة قمر ، وكنّا نعرفُ ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يارسول الله ، إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . فقلت : يارسول الله ، إن الله إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لاأحدث إلا صدقًا مابقيت . فو الله ما أعلمُ أحدًا من المسلمين أبلاهُ اللهُ في صدق الحديث - منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ - أحسن مما أبلاني ، ماتعمدتُ منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت . وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ** ﴾ - **إلى قوله** - ﴿ **وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [1] فو الله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام - أعظم ، في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال تبارك وتعالى ﴿ **سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا**

---

(١) وهي قوله تعالى ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٧ - ١١٩] .

انقَلَبْتُمْ ﴾ – إلى قوله –﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسولُ الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو ، إنما هو تخليفه إيانا وارجاؤهُ أمرنا عمَّن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه » (٢) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها : أولا : ما تمت به صياغة هذا الحديث من الأسلوب الجميل والبيان الرائع والأدب الرفيع ، وإنه ليعتبر مع أمثاله كحديث صلح الحديبية وحديث الإفك نماذج عالية للأدب العربي .

وليت القائمين على وضع المناهج الدراسية يختارون هذه الأحاديث وأمثالها لتنمية مدارك الطلاب وتكوين الملكة الأدبية والثروة اللغوية العالية ، انظر مثلا إلى قول كعب في هذا الحديث : فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه .

ثانيا : موقف كعب حينما جلس بين يدي النبي ﷺ فنفَّذ ما عزم عليه

---

(١) يعني قوله تعالى ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٥ ، ٩٦] .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٤١٨ ، (٨/ ١١٣ - ١١٦) .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه ، وذكر نحوه – صحيح مسلم، كتاب التوبة ، رقم ٢٧٦٩ (ص ٢١٢٠) – .

من قول الصدق واستبعاد الأعذار الكاذبة ، ولقد كان عقله السليم في هذا الموقف قد سيطر على نوازع النفس وعواطفها ، وذلك لقوة إيمانه الذي برز على الساحة فدفع العقل السليم إلى حسن التصرف وأخْمد أيَّ نداء للعواطف .

ويشاركه في هذا الموقف أخواه اللَّذان سلكا هذا المسلك وهما مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي رضي الله عنهما ، ولقد تقوَّى بهما كعب على الصمود في هذا الموقف الصعب كما جاء في الخبر .

إن كعبا وصاحبيه لو فعلوا كما فعل غيرهم من المتخلِّفين فاعتذروا بأي عذر لقبل منهم النبي ﷺ ظاهر أمرهم ، ولظفروا براحة نفسية مبعثها السلامة من نظرات العاتبين وإنكار المنكرين ، ولكنهم بعد ذلك سيبوؤون بهمٍّ طويل ، وصراع نفسي بالغ مبعثه الشعور بالإثم ، كيف لا وهم والحال هذه قد ارتكبوا خطيئة الكذب ، وليس مجرد كذب في معاملة الناس ، بل مع رسول الله ﷺ الذي يحبُّونه أكثر من سمعهم وبصرهم ، ثم قبل ذلك يُعتبرون قد كذبوا على الله جل جلاله الذي لا يخطو رسول الله ﷺ خطوة إلا بأمره .

لقد أدركوا إذًا خطورة هذا الكذب فعزموا على سلوك طريق الصراحة والصدق وإن عرَّضهم ذلك للتعب والمضايقات ، ولكن كان أملهم بالله تعالى كبيرا في أن يقبل توبتهم ثم يعودون إلى الصف الإسلامي أقوى مما كانوا عليه .

ثالثا : ما قام به النبي ﷺ من تطبيق مبدإ الهجر التربوي ، حيث نهى عن كلام هؤلاء الثلاثة حتى أصبحوا معزولين عن المجتمع تماما لمدة خمسين يومًا .

والهجر التربوي له منافعه العظيمة في تربية المجتمع الإسلامي على الاستقامة ، ومنع أفراده من التورط في المخالفات التي تكون إما بترك شيء من الواجبات أو فعل شيء من المحرمات ، لأن من توقَّع أنه إن وقع في شيء من ذلك سيكون مهجوراً من جميع أفراد المجتمع فإنه لايفكِّر في الإقدام على ذلك .

ولايغيب عن البال أن تطبيق هذا الحكم يجب أن يتم في الظروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النبوي المدني ، حيث توجد الدولة الإسلامية المهيمنة ، والمجتمع الإسلامي القوي ، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طُبِّق عليه هذا الحكم .

وهذا الهجر التربوي ليس له حدٌّ معين ، ولقد بلغ في هذه القصة خمسين يومًا حتى نزلت توبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة ، أما بعد ذلك فإن هذا الهجر يكون محدودًا بصلاح حال المهجورين وعودتهم إلى الاستقامة .

وهذا الهجر يختلف عن الهجر الذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا فهذا دنيوي وذاك ديني ، فالهجر الديني مطلب شرعي يثاب عليه فاعله ، أما الهجر الدنيوي فإنه مكروه إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام فإنه يكون محرمًا ، لقول رسول الله ﷺ « لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فَيُعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ أخاه بالسلام»[1] ولقوله « من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه »[2] .

(١) صحيح البخاري ، الأدب ، رقم ٦٠٧٧ (١٠/ ٤٩٢) .
صحيح مسلم ، البر ، رقم ٢٥٦٠ (ص ١٩٨٤) .
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٢٠ .

رابعًا : في هذا الخبر تصوير بليغ لإطباق الصحابة رضي الله عنهم على تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر التربوي ، حيث امتنعوا جميعًا عن كلام هؤلاء الثلاثة .

وفي ماحكاه كعب عن موقف ابن عمه أبي قتادة موقف مؤثر حيث سلَّم عليه فلم يرد عليه السلام وناشده بالله مرارًا : هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، مع أنه من أحب الناس إليه . .

إن أبا قتادة رضي الله عنه في هذا الموقف موزَّع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيز عليه ، وبين تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر التربوي ، ولكن ليس هناك تردد بين الأمرين ، فالذي أوْحَى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبي ﷺ فظهر ذلك على سلوكه .

خامسًا : موقف رائع لكعب بن مالك في الولاء التام لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين والبراءة التامة من أعداء الله الكافرين ، وعبرة ظاهرة فيما فعله ملك غسان من الكتابة لكعب يدعوه إليه ليكون عنده موضع التكريم .

إن أعداء الإسلام يحرصون دائمًا على اغتنام الفرص المناسبة ، وتصيُّد الفجوات التي تحصل في الصف الإسلامي لينفذوا منها ، فيعملوا عملهم في تفريق المسلمين ، واقتناص من يشذ عن جماعتهم ، ليجعلوا منه بطلا كبيرًا فيوجهوه لحرب المسلمين ، ويكون تحت سمعهم وبصرهم فلايتصرف إلا تحت إدارتهم .

ولقد اختار ملك غسان كعبا من بين الثلاثة لكونه شاعرًا كبيرًا ومن وجهاء المسلمين ، ولكنَّ سهم هؤلاء الأعداء بالنسبة لكعب كان طائشًا ،

فلم يحقق لهم شيئًا من أغراضهم الدنيئة بل عصمه الله تعالى بإيمانه، ولم يجد ردًا على ملك غسان أوفق من أن يحرق كتابه بالتنُّور ، وهكذا نجد الإيمان القوي يستعلي على جميع مطالب الحياة الدنيا ، لأن صاحب هذا الإيمان لايعتبرها شيئًا في ميزان الآخرة .

سادسًا : نزول توبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة يوم عظيم من أيام المسلمين ، ظهرت فيه الفرحة على وجه النبي ﷺ حتى استنار كأنه قطعة قمر ، وظهرت الفرحة على وجوه الصحابة رضي الله عنهم حتى صاروا يتلقون كعبًا وصاحبيه أفواجًا يهنئونهم بما تفضَّل الله به عليهم من التوبة .

وجاء كعب إلى النبي ﷺ ووجهه يبرق من السرور فقال له : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » وهذا يعني عظمة مقام التوبة وأنها أعظم من الدخول في الإسلام .

إن التوبة تعني عودة العبد إلى الدخول تحت رضوان الله تعالى الذي هو أعلى هدف ينشده المسلم ، وبالتالي فإنه يُحظَى بحفظه جل وعلا في الدنيا وتكريمه في الآخره .

وكانت فرحة كعب بالتوبة عظيمة عبَّر عنها بنزع ثوبيه اللَّذين لايملك يومئذ غيرهما وإهدائهما لمن بشره .

ومما يدل على سرور كعب العظيم بهذه التوبة قوله لرسول الله ﷺ : « إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله ، فقال له رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » وقوله «يارسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقًا مابقيت » .

وكذلك كانت فرحة صاحبيه عظيمة غير أن كعبًا لم يذكر في هذا الخبر إلا ماجرى له ، لكن جاء في رواية الواقدي : « وكان الذي بشر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد ، قال : وخرجت إلى بني واقف فبشرته فسجد ، قال سعيد : فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه » .

ذكره الحافظ ابن حجر : وقال : يعني لَمَّا كان فيه من الجَهد فقد قيل : إنه امتنع عن الطعام حتى كان يواصل الأيام صائمًا ، ولايفتر عن البكاء[1] .

* * *

(١) فتح الباري ٨/ ١٢٢ .

مواقف وعبر
فيما بعد تبوك

١ – مثل من ضغط الجاهلية وعزة الإسلام –
(وفد ثقيف وإسلامهم)

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : قالوا : وكان عمرو بن أمية أحد بني علاج ، وكان من أدهى العرب ، وأنكرهم[١] ، وكان مُهاجرًا لعبد ياليل بن عمرو[٢] ، وتمشَّى إلى عبد ياليل ظُهرًا حتى دخل داره، ثم أرسل إليه : إن عمرًا يقول : اخرج إليّ ! فلما جاء الرسول إلى عبد ياليل قال : ويحك ! عمرو أرسلك ؟ قال : نعم ، وهو واقفٌ في الدار. وكان عبد ياليل يُحب صلحه ويكره أن يمشي إليه ، فقال عبد ياليل : إنَّ هذا لشيءٌ ما كنت أظنُّه بعمرو ، وماهو إلا عن أمر قد حدث وكان أمرًا سوءًا ، ما لم يكن من ناحية محمد . فخرج إليه عبد ياليل ، فلما رآه رحب به ، فقال عمرو : قد نزل بنا أمرٌ ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، وقد أسلمت العربُ كلها وليست لكم بهم طاقةٌ ، وإنما نحن في حصننا هذا ، مابقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تُصاب ! ولانأمن من أحد منا يخرج شبرًا واحدًا من حصننا هذا، فانظروا في أمركم ! قال عبد ياليل : قد والله رأيتُ ما رأيت ، ما استطعتُ أن أتقدم بالذي تقدمت به ، وإنَّ الحزم والرأي الذي في يديك .

قال : فائتمرت ثقيفٌ بينها ، وقال بعضهم لبعض : ألا ترون أنه لايأمن لكم سرْب[٣] ، ولايخرج منكم أحدٌ إلا اقتُطع ؟ فائتمروا بينهم،

---

(١) أي أشدهم دهاء .

(٢) أي قد هجره فلا يكلمه .

(٣) أي طريق .

فأرادوا أن يُرسلوا رسولاً إلى النبي ﷺ ، كما خرج عُروة بن مسعود إلى النبي ﷺ . قال : فابعثوا رأسكم عبد ياليل .

فكلَّموا عبد ياليل بن عمرو بن حُبيب ، وكان سنّ عُروة ، فأبى أن يفعل ، وخشي إن رجع إلى قومه مُسلمًا أن يُصنع به إذا رجع من عند النبي ﷺ ما صُنع بعُروة حتى يبعثوا معه رجالاً ، فأجمعوا على رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك ، فبعثوا مع عبد ياليل الحكَم بن عمرو بن وهب بن مُعَتِّب ، وشُرَحْبيل بن غيلان بن سلمة بن مُعَتِّب ، وهؤلاء الأحلاف رهط عُروة ، وبعثوا في بني مالك : عُثمان بن أبي العاص ، وأوس بن عوف ، ونُمير بن خَرَشَة ، ستَّة . ويقال : إنَّ الوفد كانوا بضعة عشر رجلاً ، فيهم سُفيان بن عبد الله .

قالوا : فخرج بهم عبد ياليل وهو رأسهم وصاحب أمرهم ، ولكنه أحبّ إن رجعوا أن يُسهِّل كلّ رجل رَهْطَه ، فلما كانوا بوادي قَناة مما يلي دار حُرُض[1] نزلوا ، فيجدون نَشَرًا[2] من الإبل ، فقال قائلهم : لو سألنا صاحب الإبل لمن الإبل ، وخبَّرنا من خبر محمد ، فبعثوا عُثمان بن أبي العاص ، فإذا هو المُغيرة بن شُعبة يَرعَى في نوبته ركابَ أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانت رعيتُها نُوَبًا على أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما رآهم سلَّم عليهم وترك الرِّكاب عندهم ، وخرج يشتدُّ ، يُبشِّر النبي ﷺ بقدومهم ، حتى انتهى إلى باب المسجد فيلقى أبا بكر الصديق رضي الله عنه فأخبره خبر قومه ، فقال أبو بكر : أقسمتُ بالله عليك لاتَسبقني إلى رسول الله ﷺ بخبرهم حتى أكون أنا أُخبره - وكان رسول الله ﷺ قد

(١) هو واد من أودية قناة بالمدينة .

(٢) أي إبلا منتشره .

ذكرهم ببعض الذكر - فأُبشِّره بمقدمهم فدخل أبو بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ فأخبره والمُغيرة على الباب ، فخرج إلى المُغيرة فدخل المغيرة على النبي ﷺ وهو مسرور . فقال : يارسول الله ، قد قدم قومي يُريدون الدخول في الإسلام بأن تَشرُط لهم شروطًا ، ويكتبون كتابًا على من وراءهم من قومهم وبلادهم ، فقال رسول الله ﷺ : لايسألون شرطًا ولاكتابًا أعطيتُه أحدًا من الناس إلا أعطيتهم ، فبشِّرهم .

فخرج المُغيرة راجعًا فخبَّرهم ما قال لهم رسول الله ﷺ ، وبشرهم وعلَّمهم كيف يُحيُّون رسول الله ﷺ ، فكلّ ما أمرهم المُغيرة فعلوا إلا التحية ، فإنهم قالوا : أنْعمْ صباحًا ! ودخلوا المسجد فقال الناس : يارسول الله ، يدخلون المسجد وهو مُشركون ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنَّ الأرض لايُنَجِّسها شيءٌ ! وقال المُغيرة بن شُعبة : يارسول الله ، أنزل قومي عليّ .

وأنزل المُغيرةُ ثَقيفًا في داره بالبَقيع ، وهي خطَّة خطها النبي ﷺ له ، فأمر النبي ﷺ بخَيمات ثلاث من جريد فضُربت في المسجد ، فكانوا يسمعون القراءَة باللَّيل وتَهجُّد أصحاب النبي ﷺ ، وينظرون إلى الصُّفوف في الصلاة المكتوبة ، ويرجعون إلى منزل المُغيرة فيَطعمون ويتوضؤون ، ويكونون فيه ما أرادوا ، وهم يختلفون إلى المسجد . وكان رسول الله ﷺ يُجري لهم الضِّيافة في دار المُغيرة ، وكانوا يسمعون خُطبة النبي ﷺ فلا يسمعونه يذكر نَفْسَه ، فقالوا : أمرَنا بالتشهد أنَّه رسول الله ولايشهد به في خُطْبته ، فلما بلغ رسولَ الله ﷺ قولُهم قال : أنا أوّل من شهد أني رسول الله ! ثم قام فخَطَب وشهد أنه رسول الله في خُطبته .

فمكثوا على هذا أيّامًا يَغدون على النبي ﷺ كلّ يوم ، يُخلِّفون عُثمان بن أبي العاص على رحالهم ، وكان أصغرهم ، فكان إذا رجعوا إليه وناموا بالهاجرة خرج فعَمَد إلى النبي ﷺ فسأله عن الدِّين واستقرأه القرآن، وأسلم سرًا من أصحابه ، فاختلف إلى النبي ﷺ مرارًا حتى فقه، وسمع القرآن ، وقرأ من القرآن سُورًا من فِيِّ رسول الله ، فإذا وجد رسول الله ﷺ نائمًا عَمَد إلى أبي بكر رضي الله عنه فسأله واستقرأه- ويقال : إذا وجد النبي ﷺ نائمًا جاء إلى أُبَيّ بن كعب فاستقرأه - فبايع النبيَّ ﷺ على الإسلام قبل الوفد وقبل القَضيَّة ، وكتم ذلك عثمان من أصحابه، وأُعجب رسولُ الله ﷺ به ، وأحبّه .

فمكث الوفد أيّامًا يختلفون إلى النبي ﷺ والنبيّ يدعوهم إلى الإسلام ، فقال له عبد ياليل : هل أنت مُقاضينا حتى نرجع إلى أهلنا وقومنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتُكم، وإلا فلا قَضيَّةَ ولا صُلْحَ بيني وبينكم .

قال عبد ياليل : أرأيتَ الزنى ؟ فإنّا قومٌ عُزَّاب بغَرْب[1] ، لابُدَّ لنا منه، ولا يَصبر أحدُنا على العُزْبَة . قال : هو ممّا حرّم الله على المسلمين، يقول الله تعالى ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ [2] .

قال : أرأيت الرِّبا ؟ قال : الرِّبا حرامٌ ! قال : فإنَّ أموالنا كلَّها ربًا . قال : لكم رؤوس أموالكم ، يقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [3] .

---

(١) أي نذهب إلى بلاد بعيدة .

(٢) الاسراء / ٣٢ .

(٣) سورة البقرة ٢٧٨ .

قال : أفرأيتَ الخمر ؟ فإنَّها عصيرُ أعنابنا ، لابُدَّ لنا منها . قال : فإنَّ الله قد حرمها ! ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ** ﴾ (١) الآية .

قال : فارتفع القوم ، وخلا بعضُهم ببعض ، فقال عبد ياليل : ويْحكُم! نرجع إلى قومنا بتَحْريم هذه الخصال الثلاث ! والله لاتصبر ثقيفٌ عن الخمر أبدًا . ولاعن الزنا أبدًا . قال سُفيان بن عبد الله : أيّها الرجل ، إن يُرد الله بها خيرًا تصبرْ عنها ! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا ، فصبروا وتركوا ماكانوا عليه ، مع أنَّا نخاف هذا الرجل ، قد أوطأَ الأرضَ غَلَبَةً ونحن في حصن في ناحية من الأرض . والإسلام حولنا فاش . والله لو قام على حصننا شهرًا لمتنا جوعًا ، وما أرى إلا الإسلام ، وأنا أخاف يومًا مثلَ يوم مكة !

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى كتبوا الكتاب ، كان خالد هو الذي كتبه . وكان رسول الله ﷺ يُرسل إليهم بالطعام ، فلا يأكلون منه شيئًا حتى يأكل منه رسول الله حتى أسلموا .

قالوا : أرأيت الربَّة ، ما تَرى فيها ؟ قال : هَدْمَها . قالوا : هَيْهات! لو تعلم الربَّة أنَّا أوضعنا في هدمها (٢) قتلَتْ أهلنا . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ويحك ياعبد ياليل ! إن الربَّة حجرٌ لايدري من عَبَدَه ممّن لا يَعبُده . قال عبد ياليل : إنَّا لم نأتك ياعمر .

---

(١) سورة المائدة ٩٠ . وتمام الآية ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

(٢) أي أسرعنا السير في السفر .

فأسلَموا ، وكمُل الصلح ، وكتب ذلك الكتابَ خالد بن سعيد . فلما كمُل الصُّلح كلَّموا النبي ﷺ يدع الربَّة ثلاث سنين لايهدمها ، فأبى . قالوا : سنتين ! فأبى . قالوا : سنة ! فأبى . قالوا : شهراً واحدًا! فأبى أن يُوقِّت لهم وقتًا . وإنما يريدون بترْك الربَّة لما يخافون من سفهائهم والنساء والصبيان ، وكرهوا أن يُروِّعوا قومهم بهَدْمها ، فسألوا النبي ﷺ أن يُعفيهم من هدمها . قال رسول الله ﷺ : نعم ، أنا أبعث أبا سُفيان بن حرب والمُغيرة بن شُعبة يهدمانها ، واستعفوا رسول الله ﷺ أن يكسروا أصنامهم بأيديهم . وقال : أنا آمرُ أصحابي أن يكسروها .

وسألوا النبيّ ﷺ أن يُعفيهم من الصلاة ، فقال رسول الله ﷺ : لاخَير في دين لاصلاة فيه . فقالوا : يامحمد ، أمّا الصلاة فسنُصلّي ، وأمّا الصيام فسنصوم . وتعلَّموا فرائض الإسلام وشرائعه ، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يصوموا مابقي من الشهر ، وكان بلال يأتيهم بفطرهم . ويُخيَّل إليهم أنَّ الشمس لم تغب فيقولون : ماهذا من رسول الله ﷺ إلا استبارٌ لنا (١) ، ينظر كيف إسلامنا . فيقولون : يابلال ، ماغابت الشمس بَعْدُ . فيقول بلال : ماجئتكم حتى أفطر رسولُ الله ﷺ . فكان الوفد يحفظون هذا عن رسول الله ﷺ من تعجيل فطره . وكان بلال يأتيهم بسَحورهم ، قال : فأسترُهم من الفجر (٢) .

فلما أرادوا الخروج قالوا : يارسول الله ، أمِّرْ علينا رجلاً منَّا يؤمُّنا . فأمَّر عليهم عُثمان بن أبي العاص ، وهو أصغرهم ، لما رأى رسول الله

---

(١) أي اختبار .

(٢) يعني يستر عنهم بوادر نور الفجر قبل طلوعه لتحرجهم من الأكل خشية طلوع الفجر .

ﷺ من حرصه على الإسلام . قال عُثمان : وكان آخر عَهْد عَهده إليّ رسول الله ﷺ أن اتَّخذْ مُؤَذِّنًا لا يأخذ على أذانه أجرًا . وإذا أممت قوما فاقدُرهم بأضعفهم ، وإذا صلَّيتَ لنفسك فأنت وذاك .

ثم خرج الوفد عامدين إلى الطائف ، فلما دنَوْا من ثَقيف قال عبد ياليل : أنا أعلم الناس بثَقيف فاكتموها القضيّة . وخَوِّفوهم بالحرب والقتال ، وأخبروهم أنَّ محمدًا سألنا أمورًا عظَّمناها فأبيناها عليه ، يسألنا تحريم الزِّنا والخمر ، وأن نُبطل أموالنا في الرِّبا ، وأن نهدم الربَّة . وخرجت ثَقيف حين دنا الوفد ، فلمّا رآهم الوفد ساروا العَنَق[1] وقَطَروا الإبل [2] ، وتغشَّوْا بثيابهم كهيئة القوم قد حزنوا وكربوا ، فلم يرجعوا بخَيْر . فلمّا رأت ثقيف مافي وجوه القوم حزنوا وكربوا ، فقال بعضهم : ماجاءَ وفدكم بخير .

وأتى رجالاً منهم جماعةٌ من ثَقيف فسألوهم : ماذا رجعتم به ؟ وقد كان الوفد قد استأذنوا النبي ﷺ أن ينالوا منه فرخَّص لهم ، فقالوا : جئناكم من عند رجل فَظٍّ غليظ ، يأخذ من أمره ما شاءَ ، قد ظهر بالسيف ، وأداخ العرب ، ودانَ له الناس ، ورُعبَتْ منه بنو الأصفر في حُصونهم ، والناس فيه إمّا راغبٌ في دينه ، وإمّا خائفٌ من السيف ، فعرض علينا أمورًا شديدةً أعظمناها . فتركناها عليه ، حرّم علينا الزِّنا ، والخمر ، والرِّبا ، وأن نهدم الربَّة . فقالت ثقيف : لانفعل هذا أبدًا . فقال الوفد : لَعَمْري قد كرهنا ذلك وأعظمناه ، ورأينا أنه لم يُنصفنا ،

---

(١) العنق من السير : المنبسط (لسان العرب ، ج١٢ ، ص ١٤٩) .

(٢) قطر الإبل ، يقطرها قطرًا : قرب بعضها إلى بعض على نسق (لسان العرب ، ج٦ ، ص٤١٧) .

فأصلحوا سلاحكم ، ورُمّوا حصْنكم ، وانصبوا العَرّادات عليه والمَنْجَنيق ، و أدخلوا طعام سنة أو سنتين في حصْنكم ، لايُحاصركم أكثر من سنتين ، واحفروا خَنْدَقًا من وراء حصْنكم ، وعاجلوا ذلك فإنَّ أمره قد ظلَّ لانأمنه .

فمكثوا بذلك يومًا أو يومين يريدون القتال ، ثم أدخل الله تبارك وتعالى في قلوبهم الرُّعْب فقالوا : مالنا به طاقةٌ ، قد أداخ العرب كلّها ، فارجعوا إليه فأعطوه ما سأله وصالحوه ، واكتبوا بينكم وبينه كتابًا قبل أن يسير إلينا ويبعث الجيوش . فلمّا رأى الوفد أن قد سلَّموا بالقضية ، ورُعبوا من النبي ﷺ ، ورَغبوا في الإسلام ، واختاروا الأمْن على الخوف ، قال الوفد : فإنَّا قد قاضيناه ، وأعطانا ما أحببناه ، وشرط لنا ما أردنا ، ووجدناه أتقى الناس ، وأبرَّ الناس ، وأوصلَ الناس ، وأوفى الناس ، وأصدقَ الناس ، وأرحمَ الناس ، وقد تَركنا من هَدْم الرَّبَّة وأبينا أن نهدمها ، وقال : « أبعثُ من يهدمها » ، وهو يبعث من يهدمها .

قال : يقول شيخٌ من ثَقيف قد بقي في قلبه من الشِّرك بعْدُ بقيَّةٌ ، فذاك والله مصْداق ما بيننا وبينه ، إن قدَر على هَدْمها فهو مُحقٌ ونحن مُبطلون ، وإن امتنعتْ ففي النفس من هذا بَعْدُ شيءٌ ! فقال عثمان بن العاص : منّتك نفسُك الباطلَ وغرّتك الغُرور ! وما الرَّبَّة ؟ وماتدري الرَّبَّة من عبدها ومن لم يَعبُدها كما كانت العُزَّى ما تدري من عبدها ومن لم يعبُدها ، جاءَها خالد بن الوليدوحده فهدمها ، وكذلك إساف ونائلة ، وهُبَل ومَناة ، خرج إليها رجلٌ واحدٌ فهدمها ، وسُواع خرج إليه رجلٌ واحدٌ فهدمه ! فهل امتنع شيءٌ منهم ؟ قال الثَّقفيّ : إنَّ الرَّبَّة لاتُشبه شيئًا مما ذكرتَ . قال عُثمان : سترى ! .

وأقام أبو سُفيان والمُغيرة بن شُعبة يومين أو ثلاثة ، ثم خرجوا وقد تحكَّم أبو مُلَيح بن عُروة ، وقارب بن الأسود ، وهما يريدان يسيران مع أبي سُفيان ، والمغيرة إلى هدم الربَّة ، فقال أبو مُلَيح : يارسول الله ، إنَّ أبي قُتل وعليه دَينٌ ، مائتا مثقال ذهب ، فإن رأيتَ أن تقضيه من حُليّ الربَّة فعلتَ . فقال رسول الله ﷺ : نعم . فقال قارب بن الأسود : يارسول الله ، وعن الأسود بن مسعود أبي ، فإنه قد ترك دينًا مثل دين عُروة . فقال رسول الله ﷺ : إنَّ الأسود مات وهو كافر . فقال قارب : تَصل به قرابة ، إنما الدَّين عليّ وأنا مطلوبٌ به . فقال رسول الله : إذًا أفعلُ . فقضى عن عُروة ، والأسود ، دَينهما من مال الطاغية .

وخرج أبو سفيان والمغيرة وأصحابهما لهَدم الربَّة ، فلما دنَوا من الطائف قال لأبي سفيان : تقدَّم فادخل لأمر النبي ﷺ . فقال أبو سُفيان : بل تقدم أنت على قومك ! فتقدم المُغيرة ، وأقام أبو سُفيان بماله ذي الهَرْم [1] .

ودخل المُغيرة في بضعةَ عشَرَ رجلاً يهدمون الربَّة . فلما نزلوا بالطائف نزلوا عشاءً فباتوا ، ثم غدوْا على الربَّة يهدمونها . فقال المغيرة لأصحابه الذين قدموا معه : لأُضحكنَّكم اليومَ من ثَقيف . فأخذ المعْوَل واستوى على رأس الربَّة ومعه المعْوَل ، وقام وقام قومه بنو مُعَتِّب دونه ، معهم السلاح مخافةَ أن يُصاب كما فُعل بعمّه عُروة بن مسعود . وجاء أبو سفيان وهو على ذلك فقال : كلاَّ ! زعمْتَ تقدّمني أنت إلى الطاغية ، تُراني لو قمتُ أهدمها كانت بنو مُعَتِّب تقوم دوني ؟ قال المغيرة : إنَّ القوم قد واضعوهم هذا قبل أن تَقْدَم ، فأحبوا الأمْن على الخوف .

(١) هو موضع بقرب الطائف ، كما ذكر البكري (معجم ما استعجم ، ص ٨٣٠).

وقد خرج نساءُ ثقيف حُسَّرًا[1] يبكين على الطاغية ، والعبيد ، والصبيان ، والرجال منكشفون ، والأبكار خرجْن . فلما ضرب المُغيرة ضربةً بالمعْول سقط مَغشيًا عليه يرتكض ، فصاح أهل الطائف صيحةً واحدة : كلاً ! زعمتم أنَّ الربَّة لاتمتنع ، بلى والله لتمتنعن ! وأقام المُغيرة مليًا وهو على حاله تلك . ثم استوى جالسًا فقال : يامَعْشَرَ ثقيف ، كانت العرب تقول : مامن حيٍّ من أحياء العرب أعقل من ثقيف ، وما من حيٍّ من أحياء العرب أحمق منكم ؟ ويْحكُم ، وما اللات والعُزَّى ، وما الربَّة ؟ حجرٌ مثل هذا الحجر ، لايدري من عبده ومن لم يعبده ! ويحكم ، أتسمع اللاتُ أو تُبصر أو تنفع أو تضرّ ؟ ثم هدمها وهدم الناسُ معه ، فجعل السادن يقول ـ وكانت سَدَنَة اللات من ثقيف بنو العجلان بن عَتَّاب بن مالك ، وصاحبها منهم عَتَّاب بن مالك بن كعب ثم بنوه بعده - يقول : سترون إذا انتهى إلى أساسها ، يغضب الأساس غضبًا يَخْسف بهم . فلمّا سمع بذلك المُغيرة ولِيَ حفَرَ الأساس حتى بلغ نصف قامة ، وانتهى إلى الغَبْغَب خزانتها ، وانتزعوا حلْيَتها وكسوتها ومافيها من طيب ومن ذَهَب أو فضَّة .

قال : تقول عَجوزٌ منهم : أسلمها الرُّضّاع[2] . تركوا المصاع[3] .

وأعطى رسول الله ﷺ ممّا وُجد فيها أبا مُلَيح ، وقاربًا ، وناسًا ،

---

(١) حسرا : أي مكشوفات الوجوه (شرح أبي ذر ، ص ٤٢٦) .

(٢) الرضاع : جمع راضع ، وهو اللئيم (النهاية ، ج ٢ ، ص ٨٤) .

(٣) المضاربة بالسيف (النهاية ، ج٢ ، ص ٨٤) .

وجعل في سبيل الله وفي السِّلاح منها (١)

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : موقف النبي ﷺ من وفد ثقيف حيث جاؤوا مستسلمين لقوة دولة الإسلام ، ولم يأتوا مقتنعين بالإسلام ، فجاؤوا يشارطون النبي ﷺ على خضوعهم لدولة الإسلام في مقابل إسلام ناقص يتبعون فيه أهواءهم ، فاشترطوا على النبي ﷺ أن يبيح لهم الزنى والربا وشرب الخمر ، فأبان لهم أن كل هذه الأمور محرمات في الإسلام ، ولايملك أن يحل شيئًا حرمه الله تعالى .

لقد جاء هؤلاء الوفد وهم يعرضون جاهليتهم معهم ليخلطوها بالإسلام .

إنهم مازالوا غرقى في أوحال الجاهلية ، فلذلك صعب على نفوسهم أن يتخلوا من ساعتهم عن تلك الأوحال .

إن النفوس التي لم تتنور بالإيمان ولم تتحلَّ بالهداية ماتزال تهبط إلى السفل ، وتجد شيئًا من الوحشة في الصعود إلى الأعلى ، لأن عقولها مخنوقة بخناق الشهوات البهيمية .

وحينما تحلُّ جذوة الإيمان في القلوب تتنور بها البصائر ، ويضعف سلطان العواطف ، ويقوى سلطان العقل ، ويستردُّ حريته التي كانت مكبَّلة بخضوع الإنسان لعواطفه الجامحة ، فيبدأ بالتفكير السليم ، ويُصدر

---

(١) مغازي الواقدي ٣/ ٩٦٢ - ٩٧٢ باختصار .

وأخرجه البيهقي من حديث موسى بن عقبة وذكر نحوه - دلائل النبوة ٥/ ٢٩٩-٣٠٤- .

وأخرجه ابن إسحاق بأخصر من هذا - سيرة ابن هشام ٤/ ٢٣٨ - ٢٤٦ - ، وأخرجه ابن أبي شبة من خبر غطيف بن أبي سفيان الطائفي - تاريخ المدينة المنورة ٢/ ٤٩٩ - .

الأوامر الحكيمة، التي ترفع من شأن الإنسان كَحَيّ عاقل، ليعيش في أجواء فكره المستنير الذي يدرك حالاً أن الحق كل الحق والحكمة كل الحكمة في تطبيق شريعة الله تعالى الذي خَلَق هذا الإنسان العاقل، والذي هو أعلم جل وعلا بما يصلحه في حاضره وفي مستقبله بعد الموت.

ولقد أجاب النبي ﷺ هؤلاء بأن الله عز وجل هو الذي حرم هذه الأشياء، وكأنه يقول لهم: إذا كنتم تُقرُّون بأن الله جل جلاله هو الذي خلقكم أفلا تهديكم عقولكم إلى أنه سبحانه أعلم بما يصلحكم؟!

ومع هذا الجواب الذي رفع النبي ﷺ به عقولهم إلى الأعلى فإنهم في مشورتهم مازالوا يفكرون في حتمية العيش في الدركات السفلى، ويرون صعوبة الارتفاع إلى العلو.

ولما رأوا إصرار النبي ﷺ على ضرورة أخذ الإسلام كاملا كما جاء من عند الله تعالى رجعوا إلى التفكير في وضعهم الذي لايسمح لهم بالبقاء منفصلين عن دولة الإسلام فعادوا إلى الخضوع والاستسلام، ولكن بقي ماهو أكبر مما ذكروا في نظرهم وهو أن يعرفوا رأي النبي ﷺ في صنمهم «اللات» فقالوا: أرأيت الربَّة ماترى فيها؟ قال: هدمها، قالوا: هيهات، لو تعلم الربة أنا أوْضَعْنا في هدمها قَتَلت أهلنا.

وهذا يعني أنهم مازالوا على شركهم واعتقادهم بأن اللات تضر وتنفع من دون الله تعالى.

وهنا لم يصبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فشارك في الحوار وقال: ويحك ياعبد ياليل إن الربة حجر لايدري من عبده ممن لم يعبده، قال عبد ياليل: إنا لم نأتك ياعمر.

لقد قالوا كلاما في غاية النكارة ولكن النبي ﷺ صَمَتَ صَمْتَ الأنبياء عليهم السلام ، وتكلم عمر كلام البشر العاديين .

لقد كان بينهم وبين النبي ﷺ جسور رقيقة بالإمكان كسرها بنظرة ساخرة أو كلمة جارحة ، وكان النبي ﷺ أحرص شيء على سلامة تلك الجسور ليعبروا منها إلى الإيمان الحق .

لقد جاؤوا مستسلمين ولم يأتوا مسلمين ، فما أعظم النبي ﷺ حينما اغتنم استسلامهم ليكسب إسلامهم .

وبهذا كان الصمت وامتلاك المشاعر هو عين الحكمة .

إن المتأمل ليعجب من كلام هؤلاء عن حجر لايبصر ولايسمع ولايضر ولاينفع ، مع أنهم من سادة قومهم ولايُسَوَّد غالبا في ذلك الزمن إلا أصحاب العقول الراجحة ، ومع ذلك تدنِّي مستوى تفكيرهم حتى نسبوا إلى ذلك الصنم المقدرة على إبادة أهل الطائف لو علم أنهم سافروا ليصالحوا الرسول ﷺ على هدمه .

إن مَنْ تصوَّرَ واقع هؤلاء وأمثالهم في جاهليتهم وهم بهذا التفكير الساذج المحجوب بالظلمات ، ثم تصور واقعهم بعد الإسلام وهم ينظرون إلى تفكيرهم السابق نظرة ازدراء وتهكم . . إن من تصور ذلك سيعرف جيدا المستوى العالي الذي رفع الله تعالى به المسلمين ، والذي يمثله قول عمر رضي الله عنه : ويحك ياعبد ياليل إن الربة حجر لايدري من عبده ممن لم يعبده .

وبعد أن أسلموا طلبوا من رسول الله ﷺ أن يدع اللات ثلاث سنين فأبى ، ومازالوا يطلبونه إلى أن طلبوا تأخيرها شهراً فأبى أن يوقت لهم

وقتا، وهذا يبين لنا موقف النبي ﷺ الواضح الحازم من معالم الجاهلية الظاهرة ، كما سبق في فتح مكة ، فالأوثان قد تعلقت بها نفوس بعض الناس، ومازالوا في ذلك الوقت قبل زوالها يظنون أنها تضر وتنفع، فبقاؤها يعني بقاء الشرك ظاهرا وباطنا عند بعض الناس وهم الذي يبقون على شركهم ، حيث يقومون بعبادتها ظاهراً ويخشونها باطنا ، أو باطنا فقط عند بعض من أسلموا إسلامًا ضعيفًا إذ ربما بقي في قلوبهم شيء من الخشية منها مادامت ماثلة أمامهم .

لهذا لم يوافقهم النبي ﷺ على إبقاء ذلك الصنم حتى مع ماذكروا من مسوغات ذلك ، من محاولة تأليف أبنائهم وسفهائهم ، لأن ماأراده هؤلاء من محاولة تأليف الجهال إلى الإسلام لن يتم مع بقاء رمز الجاهلية الأكبر في بلادهم ، لأن قناعتهم المتوارثة باستحقاقه للتعظيم والعبادة وخشيتهم منه تحول بينهم وبين التفكير بسماع دعوة الحق ، ولهذا كان إصرار النبي ﷺ على عدم الموافقة على طلبهم هذا شديداً .

وأغرب من هذا طلبهم من رسول الله ﷺ أن يعفيهم من الصلاة التي هي عماد الدين ، مما يدل على أنهم لم يفقهوا الإسلام بعد ، حيث لم يدركوا أنه الاستسلام الكامل لله تعالى من غير تردد ولا تخيُّر ، بل كانوا يظنون أن الأمر راجع لاختيار البشر ، ولقد بين لهم رسول الله ﷺ أنه لاخير في دين لا صلاة فيه .

ولاشك أنهم بعدما وقر الإيمان في قلوبهم سيعلمون أن مطالبهم هذه غريبة وشاذة عند من عرف الإسلام وآمن به حقًا .

* * *

٢ – مثل من هيمنة قيم الجاهلية وعزة الإسلام – (خبر وفد بني تميم وإسلامهم)

قال ابن إسحاق : فقدمَتْ على رسول الله ﷺ وفود العرب . فقدم عُطارد بن حاجب بن زُرارة بن عُدُس التميميُّ ، في أشراف بني تميم ، منهم الأقرع بن حابس التميمي ، والزبرقان بن بدر التميمي ، أحد بني سعد ، وعمرو بن الأهتم ، والحَبحاب بن يزيد .

قال ابن إسحاق : ومعهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفَزاري ، وقد كان الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن شَهدَا مع رسول الله فتح مكة وحُنينا والطائف .

فلما قدم وفد بني تميم كانا معهم ، فلما دخل وفد بني تميم المسجدَ ، نادَوْا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : أن اخْرُج إلينا يامحمد ، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم ، فقالوا : يامحمد جئناك نُفاخرك ، فأذَن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام عطارد بن حاجب ، فقال :

الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ وهو أهله ، الذي جعلنا مُلوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق ، وأكثره عددًا ، وأيسره عُدَّة ، فمَنْ مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأُولي فضلهم ؟ فمن فاخرنا فليعدّد مثل ماعدّدنا وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نُعرف بذلك .

أقول هذا لأنْ تأتوا بمثل قولنا ، وأمرٍ أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس ، أخي بني الحارث ابن الخزرج : قم ، فأجب الرجل في خطبته ، فقام ثابت ، فقال :

الحمدُ لله الذي السموات والأرضُ خلقه ، قضى فيهن أمرَه ، ووسع كرسيَّه[1] علمُه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قُدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسبا ، وأصدقه حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابَه وأئتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه ، أكْرمُ الناس حسبًا ، وأحسن الناس وجوها ، وخَير الناس فعالا . ثم كان أولَ الخلق إجابة ، واستجاب الله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منّا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

فقام الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرامُ فلا حيّ يُعادلُنا ... منا الملوكُ وفينا تُنصَبُ البيعُ[2]

وكمْ قَسَرنا من الأحياء كلِّهم ... عند النِّهاب ، وفضلُ العز يُتبعُ[3]

---

(1) أي إن علم الله تعالى وسع كرسيه الذي هو محيط بالسموات والأرض .

(2) كَعنَب جمع بيعة بكسر الباء وهي متعبد النصارى .

(3) قسرنا يعني جبرنا وأكرهنا ، والنهاب جمع نهب وهو مايؤخذ من الأعداء .

ونحن يُطعمُ عند القَحط مُطعمُنا ... من الشِّواء إذا لم يُؤنَس القَزَعُ[1]

بما تَرى الناس تأتينا سَرَاتُهُم ... من كلّ أرض هُوِيّاً ثم نصطنعُ[2]

فننْحَر الكوم عُبطًا في أرومَتنا ... للنازلين إذا ما أُنزلوا شَبعوا[3]

فلا تَرَانا إلى حيّ نُفاخُرُهم ... إلا اسْتقادوا فكانوا الرأسَ يُقتطعُ

فمن يُفاخرُنا في ذاك نَعْرفه ... فيرجعُ القومُ والأخبارُ تُسْتمعُ

إنَّا أَبَيْنا ولا يأبى لَنا أحَدٌ ... إنا كذلكَ عند الفَخر نرْتفعُ

قال : فلما فرغ الزِّبرقان ، قال رسول الله ﷺ لحسّان بن ثابت : قم ياحسّان ، فأجب الرجل فيما قال : فقام حسان ، فقال :

إن الذوائبَ من فِهر وإخوتهم ... قد بيَّنُوا سنةً للناس تُتَّبعُ[4]

يَرْضَى بهم كلُّ من كانت سريرته ... تَقوَى الإله ، وكل الخير يَصطنعُ

قوم إذا حاربوا ضرُّوا عدوهمُ ... أو حاولوا النفع في أشْياعهم نفعوا

سجيَّة تلك منهم غيرُ مُحدثة ... إن الخلائق فاعلم شرُّهَا البدَعُ

إنْ كان في النَّاس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبعُ

لايَرقَع الناس ما أوْهَت أكفهُمُ ... عند الدفاع ولايُوهون مارَقعوا

---

(١) الشواء اللحم المشوي ، ويؤنس أي يبصر ، والقزع جمع قزعة بفتحتين وهي قطعة السحاب .

(٢) السراة الأشراف والسادة ، والهُوي بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء الإسراع ، والاصطناع صنع المعروف .

(٣) الكوم بالضم القطعة من الإبل والكوماء الناقة العظيمة السنام ، وعبطا جمع عبيط وهو ما ينحر من الإبل من غير علة وهو سمين فَتيّ ، والأرومة بفتح الهمزة وتُضَمّ الأصل .

(٤) الذوائب أي الأعلون وذوو العز والشرف .

إن سابقوا الناس يومًا فاز سبقهُمُ أو وَازنوا أهل مجد بالندى مَتعوا

أعفة ذُكرَتْ في الوَحي عفتهم لايَطبعُون ولا يُرْديهم طَمعُ[1]

لايبخلون على جار بفضلهم ولا يَمسُّهُمُ من مَطْمع طَبعُ

إذا نَصَبْنا لحيٍّ لم ندبَّ لهم كما يَدبُّ إلى الوَحْشية الذَّرَعُ[2]

نَسْموا إذا الحرْبُ نالتنا مَخالبها إذا الزعانف من أظفارها خَشعوا[3]

لايَفْخَرُونَ إذا نالوا عَدُوهم وأن أُصيبوا فلا خُورٌ ولا هُلعُ[4]

كأنهم في الوَغى والموتُ مُكْتنعٌ أُسدٌ بحليةَ في أرْساغها فَدعُ[5]

خُذْ منهم ما أتى عفْوًا إذا غضبوا ولايكن همكَ الأمرَ الذي منعوا

فإن في حرْبهم فاترك عَداوتهم شرًا يُخاضُ عليه السمُّ والسَّلَعُ[6]

أكرمْ بقوْم رسولُ الله شيعَتهم إذا تفاوَتت الأهواءُ والشِّيعُ

---

(١) لايطبعون : الطَّبع بكسر الباء الدنيء الخلق اللئيم ، أي إنهم لايتَّصفون باللؤم، ولايرديهم طمع أي لايهلكهم الطمع في الدنيا .

(٢) نصببنا لحي أي نهضنا لقتالهم ، ولم ندبَّ لهم يعني لم نمش إليهم في ضعف ووهن، والوحشية أنثى الوحشى والمراد بها البقرة الوحشية، والذَّرع محركةً ولدها .

(٣) الزعانف الضعفاء .

(٤) الخور جمع خائر وهو الضعيف، الهلع جمع هلوع وهو الشديد الجزع .

(٥) الوغي الحرب، ومكتنع أي دان قريب، وحلية اسم موضع، والأرساغ جمع رسغ وهو الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل ، والفدع اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل .

(٦) السلع محركة شجر مر .

أهْدَى لهم مدْحتي قلبٌ يُوازرهُ فيما أُحبُّ لسانٌ حائكٌ صَنَعُ[1]

فإنهم أفضلُ الأحياء كلهم إن جد بالناس جدُّ القول أو شمعوا[2]

قال ابن هشام : أنشدني أبو زيد :

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

وقال ابن هشام : حدثني بعضُ أهل العلم بالشعر من بني تميم : أن الزبرقان بن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال :

أتيناك كيما تعْلم الناسُ فضلَنا إذا احتفلوا عند احتضار المواسم

بأنا فرُوعُ الناس في كل موْطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

وأنا نَذُود المعْلمين إذا انتحَوْا ونضرب رأس الأصيد المتفاقم[3]

وأنَّ لنَا المرْباع[4] في كل غارة نُغيرُ بنجد أو بأرض الأعاجم

فقام حسان بن ثابت فأجابه ، فقال :

---

(١) الحائك اسم فاعل من حاك الثوب نسجه ، والصنع محركة البليغ الحاذق يقال رجل صَنَع اللسان ويقال لسان صنع .

(٢) شمعوا أي هزلوا ومزحوا .

(٣) نذوذ أي ندفع ، والمعلمين من يجعلون لأنفسهم في الحرب علامات يعرفون بها ، والأصيد المستكبر المتعاظم ، والمتفاقم : الأشر البطر .

(٤) هو ربع الغنيمة .

هل المجد إلا السُّودَدُ العَوْد والندى   وجاهُ الملوك واحتمال العَظائم
نَصرْنا وآوْينا النبي محمّدًا   على أنْف راض من مَعَدٍّ وراغم
بحَيٍّ حَريد[1] أصله وثراؤه   بجَابية الجوْلان وَسط الأعاجم
نَصَرناهُ لما حل وسط ديارنا   بأسيافنا من كل باغ وظالم
جَعلنا بنينا دُونهُ وَبناتنا   وطبنا لهُ نَفسا بَفيء المغانم
ونحن ضربَنَا الناس حتى تَتَابعوا   على دينه بالمرْهَفات الصوَارم[2]
ونحن ولدْنا من قريش عَظيمها   ولدنا نبي الخير من آل هاشم
بني دارم لاتفخرُوا إن فخركُم   يَعودُ وَبالاً عندَ ذكر المكارم
هَبلْتم عَلينا تَفخرُون ، وأنتمُ   لنا خَولٌ مابينَ ظئر وخادم[3]
فإنْ كنتمُ جئتم لحقن دمائكمْ   وأموالكم أن تُقسَموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا   ولا تلبسوا زيًّا كزي الأعاجم

قال ابن إسحاق : فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله : قال الأقرع ابن حابس : وأبي ، إن هذا الرجل لمُؤَتَّى له[4] ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعْلى من أصواتنا .

(١) أي منفرد ، ويقصد بذلك قبيلة غسان التي انفردت في الشام من دون العرب - الروض الأنف ٧/ ٤٣٤ .

(٢) المرهفات الصوارم يعني السيوف الرقيقة الحد القواطع .

(٣) هبلتم علينا يعني كذبتم كثيراً ، والخول محركة الخدم ، والظئر المرضع ولد غيرها .

(٤) أي مهيأ له أمره .

فلما فرغ القوم أسلموا ، وجَوّزَهم رسولُ الله ﷺ ، فأحسن جوائزَهم .

قال ابن إسحاق : وفيهم نزل من القرآن : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [**الحجرات** : ٤] (١).

في هذا الخبر موقف مهم لرسول الله ﷺ في مجال الدعوة، حيث اغتنم فرصة إقبال وفد بني تميم بخطيبهم وشاعرهم ، فدعا خطيب المسلمين وشاعرهم ، فكانت هذه المحاورة التي قامت على غرض مهم من أغراض الشعر والخطابة في ذلك العصر ألا وهو الفخر ، ولكن حينما نتأمل المادة الكلامية التي دارت في هذه المفاخرة نجد أن وفد بني تميم قد سار في مفاخرته على تعداد المفاخر التي كان أهل الجاهلية يهتمون بها من الغنى وكثرة العدد والمقدرة على الإغارة والنهب وإكرام الضيف حسب العرف السائد آنذاك ، بينما نجد خطيب المسلمين قد ركز على توحيد الله تعالى واصطفائه لنبيه ﷺ من بين البشر وذكر فضائل المسلمين التي ارتفعت عن حدود القَبَلِيَّة وسادوا بها العرب ، كما ركز شاعر المسلمين على بيان قوة المسلمين التي لا تقوم لها قوة ، وتخلُّقهم مع هذا بمكارم الأخلاق .

وإن اعتراف أحد زعماء الوفد بتفوق خطيب المسلمين وشاعرهم لدليل على علو شأن الأمة الإسلامية آنذاك من الناحية الأدبية إلى جانب علوها في القوة الحربية .

لقد جاء هذا الوفد وهم على جاهليتهم من أجل المفاخرة والمكاثرة كما قال شاعرهم : أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٨٤ - ٢٩٥ .

ولقد كان رسول الله ﷺ مُوَفقًا كل التوفيق حينما عاملهم بالأسلوب الذي يفهمونه ، وردَّ عليهم بالمستوى الأدبي الذي يقدِّرونه ، فأقام خطيبا يرد على خطيبهم وشاعراً يرد على شاعرهم ببيان مفاخر المسلمين التي لايستطيع هؤلاء القوم أن يصلوا إليها .

واستطاع ﷺ بتوفيق من الله تعالى أن ينتزع من قلوبهم نخوة الجاهلية وكبرياءها ، وأن ينسيهم وساوس الشيطان بخطيب هو أبلغ من خطيبهم وشاعر هو أشعر من شاعرهم .

فلما تبين لأفراد هذا الوفد أنهم ليسوا أفضل الناس وأن الذين قدموا لمفاخرتهم يتفوقون عليهم بأمور لايستطيعون بلوغها تطامنوا وتواضعوا وانتُزِعَتْ من قلوبهم نخوة الجاهلية وضعُف كيد الشيطان لهم فأعلنوا إسلامهم .

وإن هذا الموقف الكريم من رسول الله ﷺ ليعتبر من أوضح الأمثلة على تطبيقه للحكمة في الدعوة التي أمره الله جل وعلا بها بقوله ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [النحل : ١٢٥] فلو أنه ﷺ صدهم وهجَّن أسلوبهم، ولم يفاخرهم كما فاخروه بالخطابة والشعر لنفخ الشيطان في رُوعهم وأوحى إليهم بأن المسلمين عاجزون عن مفاخرتهم ، ولبقي الطغيان الذي كان مهيمنا على مشاعرهم باعتقاد تفوقهم على غيرهم بما يعتقدونه مُثُلاً عالية آنذاك ، ولم تكن دعوة القرآن لتنفذ إلى قلوبهم إلا أن يشاء الله لسيطرة هذه المفاهيم الجاهلية على مداركهم ، فلما عرفوا فضل المسلمين وعلو شأنهم بدؤوا بتفهُّم دعوة الإسلام فأعلنوا إسلامهم .

ثم كانوا في الفتوحات الإسلامية من أقوى جنود الإسلام ، وحازوا على ثناء النبي ﷺ ، كما أخرج الإمامان البخاري ومسلم - واللفظ له- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : لا أزال أحب بني تميم من ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «هم أشد أمتي على الدجال ، قال : وجاءت صدقاتهم فقال النبي ﷺ : هذه صدقات قومنا ، وكانت سبيَّةٌ منهم عند عائشة فقال رسول الله ﷺ : أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل »[1] .

وقوله « هم أشد أمتي على الدجال » يدل على قوة دينهم في آخر الزمان .

وفي هذا الخبر موقفان لخطيب المسلمين ثابت بن قيس بن شماس وشاعرهم حسان بن ثابت رضي الله عنهما حيث قاما بدورهما في تلك المحاورة خير قيام ، مع أن الأمر كان على البديهة ، وكان هذا مما أذهل زعماء ذلك الوفد حيث أقروا لخطيب المسلمين وشاعرهم بالتفوق على خطيبهم وشاعرهم .

وهكذا ينبغي للمسلمين في كل زمن أن يكون لديهم رجال أكفاء في كل المجالات الفكرية ليكونوا على استعداد للقيام بما يلزمهم في المناظرات الأدبية مع أعداء الإسلام ، وليكون لهم إسهام في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه .

* * *

(١) صحيح مسلم ، فضائل الصحابة رقم ٢٥٢٥ (ص ١٩٥٧) .
صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٦٦ (٨/ ٨٤) .

٣ – موقف ضَمام بن ثعلبة في إسلام قومه –

أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبه وافداً إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه ، وكان ضمام رجلا جَلْداً أشعر ذا غديرتين[1] فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه فقال : أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ أنا ابن عبد المطلب ، قال محمد ؟ قال : نعم ، فقال : ابنَ عبد المطلب إني سائلك ومغلظ في المسألة فلا تجدنَّ في نفسك ، قال : لا أجد في نفسي فسل عما بدالك ، قال : أنْشُدك الله إلاهك وإلاه من كان قبلك وإلاه من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولا؟ قال : اللهم نعم قال : فأنشدك الله إلاهك وإلاه من كان قبلك وإلاه من هو كائن بعدك آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لانشرك به شيئًا ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا يعبدون معه ؟ قال: اللهم نعم ، قال : فأنشدك الله إلاهك وإلاه من كان قبلك وإلاه من هو كائن بعدك آللّه أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس ؟ قال: اللهم نعم .

قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، يناشده عند كل فريضة كما يناشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب مانهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ، قال : ثم انصرف

---

(١) أي قويا شديدا طويل الشعر قد فرق شعره فرقتين .

راجعا إلى بعيره ، فقال رسول الله ﷺ حين ولَّى إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة .

قال : فأتى إلى بعيره فأطلق [عقاله] ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ماتكلم به أن قال : بئست اللات والعزى ، قالوا : مَهْ [1] ياضمام اتق البرص والجذام ، اتق الجنون قال : ويلكم إنهما والله لايضران ولاينفعان ، إن الله عز وجل قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، قال فو الله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولاامرأة إلا مسلما .

قال : يقول ابن عباس رضي الله عنهما فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة [2] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : موقف لرسول الله ﷺ في الحلم والسماحة ، فقد تحمل شدة هذا السائل وعامله بلطف ورحمة ، مما كان له أثر في اجتذابه وتهيئته لقبول الإسلام .

---

(١) أي اكفف .

(٢) الفتح الرباني ٢١/٢٠٨ - ٢٠٩ ، وأخرجه الإمامان البخاري ومسلم - صحيح البخاري ، رقم ٦٣ كتاب العلم ، صحح مسلم ، كتاب الإيمان رقم ١٢ - .
وأخرجه الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه وأقره الذهبي - المستدرك٣/ ٥٤ - ٥٥ - .

ثانيًا : موقف لضمام بن ثعلبة رضي الله عنه حيث عرض الإسلام على قومه بقوة ووضوح ، ولم يخش من تحذيرهم إياه بالإصابة بالبرص والجذام والجنون حينما ذم الأصنام ، وحينما رآه قومه سليمًا معافى مع ماتفوهً به من ذم الأصنام تهيئوا لسماع دعوته فوافق منهم نفوسا قد تجردت من التعلق بالأصنام فقبلوا دعوته وأسلموا جميعًا .

* * *

٤ - إسلام صُرَد بن عبد الله الازدي وجهاده -

قال ابن إسحاق : وقدم على رسول الله ﷺ صُرَدُ بن عبد الله الأزدي، فأسلم ، وحسُن إسلامه ، في وفد من الأزد ، فأمّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه . وأمره أن يُجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك ، من قبل اليمن .

فخرج صُرد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله ﷺ ، حتى نزل بجُرَش وهي يومئذ مدينةٌ مُغْلَقة ، وبها قبائل من قبائل اليمن، وقد ضَوَتْ إليهم خَثْعَم ، فدخلوها معهم حين سَمعوا بسير المسلمين إليهم ، فحاصروهم فيها قريبا من شهر ، وامتنعوا فيها منه ، ثم إنه رجع عنهم قافلا ، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شكر ، ظن أهل جُرَشَ أنه إنما ولَّى عنهم منهزما ، فخرجوا في طلبه ، حتى إذا أدركوه عَطف عليهم ، فقتلهم قتلا شديداً .

وقد كان أهل جُرَش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران ، فبيناهما عند رسول الله ﷺ عشيَّةً بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله ﷺ : بأيّ بلاد الله شكر ؟ فقام إليه الجُرشيان فقالا : يارسول الله ، ببلادنا جبل يقال له كَشر ، وكذلك يسميه أهلُ جُرَش ، فقال : إنه ليس بكشر ، ولكنه شَكر ، قالا : فما شأنه يارسول الله ؟ قال : إن بُدْنَ الله لتنحر عنده الآن ، قال : فجلس الرجلان إلى أبي بكر أو إلى عثمان ، فقال لهما : ويحكما ! إن رسول الله ﷺ ليَنعى لكما قومكما ، فقوما إلى رسول الله ﷺ ، فاسألاه أن يدعوَ الله أن يرفع عن قومكما ، فقاما إليه ، فسألاه ذلك ، فقال : اللهم ارفع عنهم ، فخرجا

من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما ، فوجدا قومهما قد أصيبوا يومَ أصابهم صُرَد بن عبد الله ، في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ماقال ، وفي الساعة التي ذكر فيها ماذكر .

وخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا[1] .

في هذا الخبر موقف لصرد بن عبد الله الأزدي والمسلمين الذين كانوا معه حيث حاصروا المشركين في مدينة جرش ، ثم لما طال الحصار قام صرد بانسحاب أَوْهَم فيه الأعداء بأنه قد انهزم عنهم ، وكان هو وجيشه في كامل استعدادهم لما خرج إليهم الأعداء فاقتتلوا ونصر الله المسلمين عليهم .

وفي هذا الخبر معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر الرجلين الجرشيين بقتل قومهم في نفس اليوم الذي قتلوا فيه .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٢٦ - ٣٢٨ .

وأخرجه ابن سعد من حديث عبد الله بن عكرمة بن الحارث عن أبيه - طبقات ابن سعد١/ ٣٣٩- .

٥ – مثلان منْ هَدْي النبي ﷺ في إكرام الكرماء – (وفادة جرير البجلي ووائل بن حُجْر)

١ – أخرج الإمامان أحمد والبيهقي من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : لما دنوت من المدينة أَنَخْتُ راحلتي ثم حللت عيبتي ثم لبست حُلتي ثم دخلت فإذا رسول الله ﷺ يخطب فرماني الناس بالحدق [1] فقلت لجليسي ياعبد الله ذكرني رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ذكرك آنفًا بأحسن ذكر ، فبينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته وقال : يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفج من خير ذي يمن ، وإنَّ على وجهه مَسْحةُ ملك قال جرير : فحمدت الله عز وجل على ما أبلاني [2] .

٢ – أخرج الإمام البخاري من حديث وائل بن حُجْر رضي الله عنه قال : بلغني ظهور النبي ﷺ فتركت مُلْكا عظيما وطاعة عظيمة فهبطت إلى النبي ﷺ فأخبرني أصحابه فقالوا : بشَّرنا النبي ﷺ بمقدمك قبل أن تقدم بثلاثة أيام ثم لقيته فقرَّب مجلسي وأدناني وبسط لي رداءه وأجلسني معه وقَبل إسلامي ثم هبط إلى منبره فصعد وأصعدني معه فقمت دونه فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبيين وقال : هذا وائل ابن حجر أتاكم من أرض بعيدة من حضرموت طائعًا غير مكره راغبًا في الله عز وجل وفي رسوله وفي دينه، بقية أبناء الملوك، اللهم بارك في

---

(١) أي نظروا إليه بعيونهم .

(٢) الفتح الرباني ٢١/ ٢١٦ .

دلائل النبوة ٥/ ٣٤٦ - ٣٤٧ .

وائل بن حجر وفي ولده وولد ولده، ثم أنزلني معه . فبعث معي معاوية ابن أبي سفيان قال : وأمره أن يعطيني أرضا فيدفعها إليّ ، وكتب لي كتابا خاصا يفضلني فيه على قومي وكتابا لي ولأهل بيتي بمالنا وكتابًا لي ولقومي، فخرجت في الهاجرة فركبت راحلتي واشتدت الرمضاء وأوضعت[1]، فقال لي معاوية : أردفني ، قلت : مابي ضَنٌّ عن هذه الناقة ولكن لستَ من أرداف الملوك ، قال : فألق إلي حذاءك أتوَقَّى به ، قلت : لست أضنُّ بالحذاء ولكن لست ممن يلبس لباس الملوك قال : فقصِّر عليَّ من راحلتك أمشي في ظلها ، قلت : ذاك لك وكفَى لك به شرفًا [2] .

وذكره الحافظ ابن حجر وزاد في آخره : فلما استُخلف معاوية قصده فتلقاه وأكرمه ، قال وائل : فوددت لو كنت حملته بين يدي [3] .

في هذين الخبرين مواقف وعبر منها :

أولا : موقفان لرسول الله ﷺ في إكرام كرماء الأقوام وسادتهم، ففي الخبر الأول نوَّه بجرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه وأثنى عليه ليكرمه الصحابة رضي الله عنهم ويعتنوا به ، وفي الخبر الثاني بشَّر النبي ﷺ أصحابه بقدوم وائل بن حجر رضي الله عنه قبل وصوله بثلاثة أيام ، وقد أكرمه النبي ﷺ بعد وصوله إكرامًا بالغاً نظراً لسيادته الكبيرة في قومه .

---

(١) أي أسرعت السير .

(٢) التاريخ الكبير رقم ٢٦٠٧ (٤٠/ ١٧٥) .

(٣) الإصابة رقم ٩١٠٢ (٣/ ٥٩٢) .

إن السادة والكرماء قد ألفُوا من الناس على حياة الاحترام والتقدير، فإذا انتقلوا من أقوامهم ومواطن عزهم وجاؤوا مسلمين طائعين مختارين فإنهم بحاجة إلى أن يعاملوا بالتكريم والاحترام حتى لا يصابوا بردَّة فعل فيما إذا عوملوا بشيء من الجفاء، فيكون ذلك سببا في صدهم عن الإسلام، وليس من المسلَّم به أن يقال إنهم ماداموا دخلوا في الإسلام فلابد أن يتواضعوا وأن يعاملوا بمثل مايعامل به أفراد المسلمين لأن خلفيات الحياة الأولى تبقى في نفوس هؤلاء حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ويتعلموا أخلاق الإسلام وآدابه، وماهذه المعاملة التي عامل بها وائل بن حجر معاوية رضي الله عنهما إلا من آثار حياة السيادة والملك، ولهذا كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بهؤلاء بقوله « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ».

وفي هذين الخبرين معجزتان لرسول الله ﷺ حيث أخبر عن قدوم هذين السيدين الكريمين قبل وصولهما، ففي ذلك عبرة للمعتبرين وآية للمتذكرين.

وأخيراً موقف لأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. حينما وفد عليه وائل بن حجر فتلقاه وأكرمه ولم يتأثر بموقفه القديم معه، وهذا مثل من أمثلة عظمة الإسلام في تهذيب النفوس وتقويمها.

* * *

٦ - (خبر زياد الصُّدائي)

أخرج الحافظ البيهقي من حديث زياد بن الحارث الصُّدائي قال : أتيت رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام فأُخبرت أنه قد بعث جيشًا إلى قومي ، فقلت : يارسول الله اردد الجيش وأنا لك بإسلام قومي وطاعتهم ، فقال لي : اذهب فردَّهم ، فقلت : يارسول الله إن راحلتي قد كلَّت ، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فردَّهم .

قال الصدائي : وكتبت إليهم كتابًا ، فقدم وفدهم بإسلامهم ، فقال لي رسول الله ﷺ : يا أخا صداء إنك لمطاع في قومك ، فقلت : بل الله هداهم للإسلام ، فقال : أفلا أؤمرك عليهم؟ قلت : بلى يارسول الله ، قال : فكتب لي كتابا أمَّرني ، فقلت : يارسول الله مُرْ لي بشيء من صدقاتهم ، قال : نعم ، فكتب لي كتابًا آخر .

قال الصدائي : وكان ذلك في بعض أسفاره فنزل رسول الله ﷺ منزلا ، فأتاه أهل ذلك المنزل يشكون عاملهم ويقولون : أخَذَنا بشيء كان بيننا وبين قومه في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : أوَفَعل ذلك؟ قالوا : نعم ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه وأنا فيهم ، فقال : لاخير في الإمارة لرجل مؤمن .

قال الصدائي : فدخل ذلك في نفسي ، ثم أتاه آخر فقال : يارسول الله أعطني ، فقال رسول الله ﷺ : من سأل الناس عن ظَهْر غنى فَصداع في الرأس وداء في البطن ، فقال السائل : أعطني من الصدقة ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله لم يرض في الصدقات بحكم نبي ولاغيره حتى حكم فيها هو فجزَّأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء

أعطيتك - أو اعطيناك حقك - ، قال الصدائي : فدخل ذلك في نفسي أني غني وأني سألته من الصدقه .

قال : ثم إن رسول الله ﷺ اعْتَشَى - يعني سار في وقت العشاء - من أول الليل ، فلزمته وكنت قريبا ، وكان أصحابه ينقطعون عنه ويستأخرون حتى لم يبق معه أحد غيري ، فلما كان أوان صلاة الصبح أمرني فأذَّنت ، فجعلت أقول : أقيم يارسول الله ؟ فجعل ينظر ناحية المشرق إلى الفجر ويقول : لا ، حتى إذا طلع الفجر نزل فتبرز ثم انصرف إليّ وهو يتلاحق أصحابه ، فقال : هل من ماء يا أخا صداء؟ قلت : لا إلا شيء قليل لايكفيك ، فقال : اجعله في إناء ثم ائتني به ، ففعلت فوضع كفه في الماء ، قال الصدائي فرأيت بين إصبعين من أصابعه عينا تفور ، فقال رسول الله ﷺ : لولا أني استحيي من ربي عز وجل لسقينا واستقينا ، ناد في أصحابي من له حاجة في الماء ، فناديت فيهم فأخذ من أراد منهم شيئًا .

ثم قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة ، فأراد بلال أن يقيم ، فقال له رسول الله ﷺ : إن أخا صداء هو أذَّن فهو يقيم . فقال الصدائي : فأقمت الصلاة .

فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة أتيته بالكتابين، فقلت : يارسول الله أعفني من هذين ، فقال : مابدا لك ؟ فقلت : سمعتك يارسول الله تقول : لاخير في الإمارة لرجل مؤمن ، وأنا أؤمن بالله وبرسوله ، وسمعتك تقول للسائل : من سأل الناس عن ظهر غنى فهو صداع في الرأس وداء في البطن ، وسألتك وأنا غني ، فقال : هو ذاك فإن شئت

فاقبل وإن شئت فَدَع ، فقلت : أدَعُ ، فقال لي رسول الله : فدلَّني على رجل أؤمره عليكم ، فدللته على رجل من الوفد الذين قدموا عليه فأمَّره عليهم .

ثم قلنا : يارسول الله إن لنا بئرا إذا كان الشتاء وسعَنا ماؤها ، واجتمعنا عليها ، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه حولنا ، وقد أسلمنا وكل من حولنا لنا عدو ، فادع الله لنا في بئرنا أن يسعنا ماؤها فنجتمع عليه ولانفترق ، فدعا بسبع حصيات فعركهن بيده ودعا فيهن ، ثم قال : اذهبوا بهذه الحصيات ، فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة واذكروا الله عز وجل .

قال الصدائي : ففعلنا ما قال لنا فما استطعنا بعد ذلك أن ننظر إلى قعرها - يعني البئر - [1] .

وذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث وقال : وهذا الحديث له شواهد في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه [2] وحسَّن إسناده ابن عساكر[3] .

وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم وهو ضعيف وقد وثقه أحمد بن صالح وردَّ على من تكلم فيه وبقية رواته ثقات [4] .

وذكر الحافظ ابن حجر أن الإمام أحمد أخرجه بطوله وأخرجه

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٣٥٥ .

(٢) البداية والنهاية ٥/ ٧٥ .

(٣) كنز العمال ١٦/ ١٢ .

(٤) مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٤ .

أصحاب السنن وفي إسناده الأفريقي - يعني عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المذكور - - لكن قال : وله طريق أخرى من طريق المبارك بن فضالة(١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : اهتمام النبي ﷺ بهداية الناس عن طريق الدعوة وعدم اللجوء إلى الجهاد إلا عند الضرورة ، فقد رد الجيش الذي بعثه إلى بني صداء حينما تكفل له زياد بن الحارث الصدائي بإسلام قومه .

إن عدول القائد عن رأيه بعد بدء تنفيذ العمل فيه صعوبة على النفس ، ولكن النبي ﷺ يَسُنّ لأمته بهذا لزوم الاعتصام بالحق ولو بعد صدور القرار والبدء بتنفيذ الأمر .

ثانيًا : موقف لزياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه ، حيث زهد بالإمارة خوفا من التعرض لآثارها السيئة ، مع أنه لم يسألها وإنما ولاّه النبي ﷺ على قومه لما رأى من قوة تأثيره عليهم حيث كان سببا في إسلامهم .

كما أنه تورع عن الصدقة بعدما كتب له النبي ﷺ بشيء من صدقات قومه ، ولعله ﷺ كتب له بذلك باعتبار أنه سيكون من العاملين على جباية الصدقات حيث إنه قد ولاه على قومه ، وقد أخبر النبي ﷺ بعدم رغبته في الإمارة خشية أن يلحقه منها إثم ، وبعدم رغبته في الأخذ من الصدقة لما سمع النبي ﷺ يشدد النكير على من أخذ من الصدقة وهو غني ، وهذا دليل على قوة إيمان زياد بن الحارث على حداثة إسلامه رضي الله عنه ،

---

(١) الإصابة ١/٥٣٨ .

وقد قبل النبي ﷺ استعفاءه من الأمرين، ولعل ذلك لأنه أراد أن يغذي في نفسه هذا الشعور الإيماني ، وذلك بميله إلى التنزه من الشبهات والبعد عن أسباب الفتنة .

ثالثًا : يشتمل هذا الخبر على معجزتين لرسول الله ﷺ ، أولاهما : نبع الماء من بين أصابعه حتى كأنه عين تفور ، والثانية وفرة الماء في بئر بني صداء طوال العام بعدما ألقوا فيها الحصيات السبع اللاتي دعا فيهن النبي ﷺ ، وفي هاتين المعجزتين وأمثالهما عبرة لأولي الأبصار والعقول المتجردة من اتباع الهوى المنحرف .

وقول رسول الله ﷺ « لاخير في الإمارة لرجل مؤمن » محمول على المؤمن الذي يخشى على نفسه من الفتنة بالإمارة كما يفهم من سياق القصة التي قال النبي ﷺ هذا القول بمناسبتها ، أما إذا كان المؤمن لايخشى على نفسه من الافتتان بالإمارة وكان عادلا في ولايته فإنها تكون له عملا صالحًا كما جاء في قول رسول الله ﷺ « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله : الإمام العادل » الحديث [1] وقوله « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا » [2] .

* * *

(١) صحيح البخاري ، الأذان ، رقم ٦٦٠ (٢/ ١٤٣) .
صحيح مسلم ، الزكاة ، رقم ١٠٣١ (٢/ ٧١٥) .

(٢) صحيح مسلم ، الإمارة ، رقم ١٨٢٧ (٣/ ١٤٥٨) .

٧ - مثل من رحمة النبي ﷺ -
(خبر ابن أبي عقيل الثقفي)

أخرج الإمامان الطبراني والبزار من حديث عبد الرحمن بن أبي عقيل قال: انطلقت في وفد إلى رسول الله ﷺ فأتيناه فأنخنا بالباب ومافي الناس أبغض إلينا من رجل نلج عليه، فما خرجنا حتى ما كان في الناس أحب إلينا من رجل دخلنا عليه ، فقال قائل منا : يارسول الله ألا سألت ربك ملكا كملك سليمان ؟ قال : فضحك ثم قال : فلعل لصاحبكم عند الله أفضل من ملك سليمان، إن الله لم يبعث نبيًّا إلا أعطاه دعوة ، منهم من اتخذ بها دنياه فأعطيها ، ومنهم من دعا بها على قومه إذ عصوه فأهلكوا بها ، وإن الله أعطاني دعوة فاختبأتها عند ربي شفاعة لأمتي يوم القيامة .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه الطبراني والبزار ورجالهما ثقات[١] .

في هذا الخبر موقف عظيم من مواقف رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليهم ، حيث اختبأ دعوته التي خصصها الله سبحانه للأنبياء عليهم السلام لتكون شفاعة لأمته يوم القيامة .

إنه لموقف كبير القدر عظيم النفع ألهمه الله تعالى نبيه ﷺ ليستنقذ به من شاء الله إنقاذه من هذه الأمة من العذاب يوم القيامة ، كما أخرجهم

---

(١) مجمع الزوائد ١٠/ ٣٧٠ - ٣٧١ .

وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٤/ ٣٨٧ ونقل محققه عن البوصيري أنه قال : رواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار والطبراني ورواته ثقات .

الله به في الدنيا من الظلمات إلى النور .

وإنه لفرق كبير بين نفع يقدَّم في هذه الحياة الفانية مما يختص بها ، ونفع يُسْدَى في الدار الآخرة الخالدة .

*　　*　　*

٨ – إسلام فروة بن عمرو الجذامي وثباته على الدين –

قال ابن إسحاق في بيان خبره : وبعث فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي ثم النفاثي إلى رسول الله ﷺ رسولا بإسلامه ، وأهدى له بغلة بيضاء ، وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله «معان» وماحولها من أرض الشام .

فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم ، ثم ذكر بعض شعره في ذلك ، وأن الروم أجمعوا على قتله وصلبه على ماء لهم يقال له عفراء بفلسطين .

قال : فزعم الزهري ابن شهاب أنهم لما قدَّموه ليقتلوه قال :

بلِّغ سراة المسلمين بأنني   سلْم لربِّي أعْظُمي ومُقَامي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء يرحمه الله تعالى (١) .

إن في خبر فروة هذا مثلا عاليًا للثبات على الدين الحق والترفع عن جواذب الأرض ومتاع الحياة الدنيا ، حيث جرَّ عليه إيمانه بالإسلام فَقْدَ منصبه الكبير ، ثم صبر على البلاء حيث تعرض للحبس أوَّلاً ثم القتل بعد ذلك .

وإنه لايصل إلى هذا المستوى من الإيمان إلا من عرف منزلة الحياة الدنيا من الآخرة ففضَّل الأعلى على الأدنى ، وضحَّى بالقليل الزائل من أجل الكثير الدائم .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٣٣ .

وذكر الحافظ خبر ابن إسحاق هذا ، ثم نسب هذا الخبر إلى ابن شاهين وابن منده من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند ضعيف إلى الزهري – الإصابة ٣/ ٣٠٧ ، رقم ٧٠٢٢ – .

٩ – مواقف تربوية ودعوية –

(بعث معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري في الدعوة إلى اليمن)

١ – أخرج الإمام البخاري من حديث أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « بعثَ رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن ، قال : وبعث كلَّ واحد منهما على مخلاف ، قال : واليمنُ مخلافان [١] ثم قال : يسِّرا ولاتُعَسِّرا ، وبَشِّرا ولاتُنَفِّرا . فانطلق كلٌّ واحد منهما إلى عمله ، وكان كلٌّ واحد منهما إذا سارَ في أرضه كان قريبًا من صاحبه أحدثَ به عهدًا فسلم عليه . فسار مُعاذٌ في أرضه قريبا من صاحبه أبي موسى ، فجاء يَسيرُ على بغلته حتى انتهى إليه ، وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس ، وإذا رجلٌ عندهُ قد جُمعتْ يداهُ إلى عنقه ، فقال له مُعاذ : ياعبد الله بن قيس أيْمَ هذا [٢]؟ قال : هذا رجلٌ كفر بعد إسلامه . قال : لاأنزلُ حتى يقتلَ . قال : إنما جيء به لذلك ، فانزل : قال : ما أنزلُ حتى يُقتل . فأمرَ به فقتل ، ثم نزل فقال : ياعبد الله كيف تقرأ القرآن ؟ قال : أتفوَّقهُ تفوُّقًا [٣] . قال : فكيف تقرأ أنتَ يامعاذ ؟ قال : أنامُ أوَّل الليل ، فأقومُ وقد قضَيتُ جُزئي من النوم ، فأقرأ ماكتب الله لي ، فأحتسب نومتي ، كما أحتسب قَومتي»[٤] .

---

(١) أي إقليمان .

(٢) أي ما شأنه .

(٣) أي أقرأه ساعة بعد ساعة ، مأخوذ من فُواق الناقة وهو أن تحلب ثم تترك ساعة حتى تدرَّ ثم تحلب .

(٤) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٤١ (٨/ ٦٠) .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث أبي بردة عن أبيه أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وذكر نحوه [١] .

٢ - أخرج الإمام البخاري من حديث أبي مَعَبد مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال « قال رسولُ الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثهُ إلى اليمن : إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعُهم إلى أن يشهدُوا أن لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ الله ، . فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة . فإن هم أطاعوا لك بذلك فاخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذُ من أغنيائهم فتُردُّ على فُقرائهم . فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتَّق دَعوة المظلوم فإنهُ ليس بينه وبين الله حجاب»[٢] .

٣ - أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته فلما فرغ قال : يامعاذ إنك عسى أن لاتلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري فبكى معاذ جشعا [٣] لفراق رسول الله ﷺ ،وفي لَفْظ : فقال النبي ﷺ : لاتبك يامعاذ ، للبكاء أوان ، إن البكاء من الشيطان ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا [٤] .

---

(١) صحيح مسلم ، الأشربة ، رقم ٢٠٠١ (ص ١٥٨٧) .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٤٧ (٨/ ٦٤) .

(٣) الجشع هو الجزع .

(٤) الفتح الرباني ٢١ / ٢١٥ .

في هذه الأخبار مواقف منها :

أولا : في وصايا النبي ﷺ الدعوية ، ففي الحديث الأول أمر معاذًا وأبا موسى رضي الله عنهما بالتيسير على الناس ونهاهما عن التعسير عليهم، وأمرهما بالتبشير ونهاهما عن التنفير .

وهذا أصل مهم في مناهج الدعوة إلى الله تعالى ، فإن الناس من طبائعهم أن يعتزوا بعقولهم وإدراكهم ، وأن يعتزوا بما ورثوه عن أسلافهم من أديان وعادات ، فإذا جاءهم من يستسخف عقولهم ، أو يستفزُّهم في مقدساتهم التي يؤمنون بها فإن عنصر الدفاع عن النفس وعن المقدسات يبرز على الساحة فيغطي على ما أودعه الله تعالى في الإنسان من جوانب الذوق والوجدان والتفكير السليم ، ويصبح الشيء الذي يهيمن على الإنسان هو إلى أيِّ مدًى سيكون نجاحه في الدفاع عن نفسه وحماية مقدساته .

وبهذا يكون هذا الداعية الذي بدأ بالهجوم واستعمل العنف في دعوته قد وضع بينه وبين المدعُوِّين سدا منيعا يحول بينهم وبين التأثر بكلامه وقبول دعوته ، وبالتالي يكون قد أساء إلى الدعوة الإسلامية، في الوقت الذي كان يظن أنه قد أجاد وأحسن .

لهذا كانت هذه هي وصية الرسول ﷺ لهذين الداعيتين الكبيرين، لأن هذا الأمر هو الذي يشغل باله ، والذي يتوقف عليه نجاح الدعوة بعد الأمور الأخرى التي هي متوفرة لدى الصحابة رضي الله عنهم، من الإيمان القوي والتجرد لله تعالى والدار الآخرة والعلم الراسخ .

وفي الحديث الثاني يوصي رسول الله ﷺ معاذًا بالتدرج في الدعوة

والبدء بالأهم فالأهم ، وهذا أيضا عامل مهم من عوامل نجاح الدعوة، فالدعوة تكون أولا بترسيخ الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ إيمانًا يثبت في القلوب ويهيمن على الأفكار والسلوك ، ثم تكون الدعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العملية التي ترسخ هذا الإيمان وتنميه ، ثم يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات ، فيتقبل الناس تكاليف الإسلام التي قد تكون مخالفة لهوى النفس لأن قلوبهم قد عمرت بالإيمان واليقين قبل ذلك .

ثانيًا : في الخبر الأخير مثل من تواضع النبي ﷺ العظيم حيث كان يوصي معاذا وهو على راحلته ورسول الله ﷺ يمشي على قدميه .

ولفتة كريمة من رسول الله ﷺ حينما بكى معاذ جزعًا لفراق رسول الله ﷺ فقال له : « لاتبك يامعاذ للبكاء أوان ، إنما البكاء من الشيطان» ويقصد البكاء الذي يفتُّ في عضد المسلم ويَحُدُّ من إقدامه على القيام بالمهمات الجليلة .

ثم الإشادة من رسول الله ﷺ بالمتَّقين مَنْ كانوا في أنسابهم وأجناسهم وألوانهم ، وحيثما كانوا في أي صقع من الأرض .

وفي هذا تذكير لمعاذ بأن يهتم بهذا الأصل العظيم من أصول الإسلام الذي يكسب به الدعاة قطاعا ضخما من البشر قَعَدَتْ بهم أنسابهم أو أجناسهم أو ألوانهم ، ليكونوا جنود الدعوة الإسلامية إذا حازوا على هذا الشرف الكبير شرف التقوى ، وليصلوا إلى مستوى تكريم الله تعالى لهم بقوله﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [**الحجرات** : ١٣] .

ثانيًا : مواقف للصحابيين الجليلين أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ، ومن ذلك اهتمامها بانكار المنكر وتنفيذ الحدود ، حيث أقاما حد الردة على رجل كفر بعد إسلامه .

والردة عن الإسلام من الناحية الدعوية لها ضرر كبير على الدعوة ، حيث يتوهم البسطاء والسذَّج من ارتداد الناس عن الإسلام عدم صلاحيته لإصلاح الناس وتنظيم أمور حياتهم ، ولهذا حاول اليهود أن يثيروا الشبهات حول الإسلام من هذا الجانب بقولهم فيما حكاه الله تعالى عنهم ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [**آل عمران** : ٧٢] .

ولهذا المقصد وغيره كان إنكار معاذ بالغا حتى قال : لا أنزل حتى يُقتَل .

ومن مواقفهما التي جاءت في هذه الأخبار اهتمامهما بالمناصحة في أمور العبادة حيث جرى منهما التساؤل عن قراءة القرآن وصلاة الليل فأخبر كل واحد أخاه بطريقته في ذلك ، وهذه المناصحة مطلوبة بين المؤمنين ، فقد يغفل المسلم عن بعض الأعمال الصالحة ، سواء في ذلك العبادات الخاصة كالصلاة والصيام وتلاوة القرآن ، أو المتعدية التي يتعدى نفعها للآخرين كالدعوة وبذل المعروف وتعليم العلم ، فإذا حصل التساؤل بين المسلمين عن ذلك تذكر الغافل ، وتعلم الجاهل ، وتقوَّى المتكاسل .

* * *

١٠ - خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع -

أخرج الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما خبر حجة النبي ﷺ ، وقد جاء فيه فخطب الناس وقال « إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم . كحرمة يومكم هذا [١] في شهركم هذا . في بلدكم هذا . ألا كلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوعٌ . ودماءُ الجاهلية موضوعةٌ . وإن أول دم أضعُ من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث [٢] - كان مُسترضعا في بني سعد فقتلتهُ هُذيلٌ - وربا الجاهلية موضوعٌ . وأولُ ربًا أضعُ ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب . فإنهُ موضوعٌ كلهُ . فاتقوا الله في النساء . فإنكم أخذتُموهن بأمان الله . واستحللتم فرُوجهن بكلمة الله [٣] .

ولكُم عليهنَّ أن لا يُوطئن فُرُشكم أحدًا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبرح . ولهُن عليكم رزقهُنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف . وقد تركت فيكم مالن تضلُّوا بعدهُ إن اعتصمتم به . كتابُ الله . وأنتم تُسألون عنِّي . فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهدُ أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس «اللهم ! اشهد . اللهُمَّ ! اشهد » ثلاث مرات [٤] .

وأخرجه الإمام أحمد من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه . .

---

(١) يعني يوم عرفة .

(٢) هو إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

(٣) رجح الإمام النووي أن كلمة الله هي قوله تعالى ﴿ فانكحوا ماطاب لكم من النساء ﴾ - شرح النووي على مسلم ٨/ ٨٣ - .

(٤) صحيح مسلم ، الحج ، رقم ١٢١٨ (ص ٨٨٦ - ٨٩٢) .

وزاد فيه « ألا لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون ولكنه في التحريش بينكم »[١] .

في هذه الخطبة النبوية مثل من قوة النبي ﷺ في إظهار شريعة الله تعالى وتنفيذ أوامره ، فقد أبطل أمور الجاهلية التي يعتز بها الكفار ويتفاخرون في إبرازها . . أبطلها بأسلوب يتسم بإهانتها في مقابل إعزاز الكفار لها .

ولاشك أن مقاومة الناس في معتقداتهم وقناعاتهم الفكرية أمر يحتاج إلى شجاعة عالية وإيمان راسخ بالمعتقد المخالف لمعتقدات هؤلاء الناس ، ولقد كان النبي ﷺ في منتهى القمة في الإيمان بالحق والشجاعة في إزهاق الباطل .

وتظهر عظمة النبي ﷺ في التمثيل لإزهاق الباطل والقضاء على مبادئ الجاهلية بتطبيق ذلك على بعض أقاربه ، حيث أعلن وضع دم ابن عمه إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، ووضع ربا عمه العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه ، فهو بهذا يعلن لعموم الناس أن أقاربه هم أول من تُطبَّق عليهم أحكام الإسلام ، وذلك أدعى لقبول هذه الأحكام والتسليم بها .

* * *

(٤) الفتح الرباني ٢١ / ٢٧٩ - ٢٨٠ .

١١ - مواقف إسلامية لم يُحدَّد تاريخها -

١ - مثل من حياة الأمن في الإسلام -

١ - أخرج الإمام البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال : كنّا في سفر مع النبي ﷺ ، وإنا أسرينا حتى إذا كنا في آخر الليل وقعنا وقعة ولا وقعة أحلى عند المُسافر منها ، فما أيقظنا إلا حرُّ الشمس ، وكان أول من استيقظ فلان ثم فلان ثم فلان - يُسميهم أبو رجاء فنسي عوفٌ - ثم عمر بن الخطاب الرابعُ ، وكان النبي ﷺ إذا نام لم يوقظ حتى يكون هو يستيقظ لأنا لاندري مايحدث له في نومه . فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس - وكان رجلا جليداً [١] - فكبَّر ورفع صوته بالتكبير ، فمازال يُكبِّرُ ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ بصوته النبي ﷺ ، فلما استيقظ شكَوْا إليه الذي أصابهم ، قال : لاضير - أو لايضيرُ - ارتحلوا . فارتحل ، فسار غير بعيد ، ثم نزل فدعا بالوضوء فتوضأ ، ونُودي بالصلاة فصلى بالناس ، فلما انفتل من صلاته إذا هُو برجل مُعتزل لم يُصل مع القوم ، قال : مامنعك يافلان أن تُصلي مع القوم ؟ قال : أصابتني جنابةٌ ولا ماء . قال : عليك بالصعيد . فإنه يكفيك .

ثم سار النبي ﷺ فاشتكى إليه الناسُ من العطش ، فنزل فدعا فُلانا - كان يسميه أبو رجاء نسيهُ عوفٌ [٢] - ودعا عليًا فقال : اذهبا فابتغيا الماء ،

---

(١) أي صلبا قويا ، وفي رواية لمسلم « وكان أجوف جليدا » والأجوف رفيع الصوت كأن صوته يخرج من جوفه .

(٢) في رواية لمسلم أنه عمران بن حصين كما ذكر الحافظ ابن حجر (الفتح ١/ ٤٥١ - ٤٥٢) .

فانطلقا فتلقَّيا امرأة بين مزادتين [١]- أو سطيحتين - من ماء عَلَى بعير لها فقالا، لها : أين الماء ؟قالت عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونَفُرنا خلوف[٢].

قالا لها : انطلقي إذًا . قالت : إلى أين ؟ قالا إلى رسول الله ﷺ . قالت : الذي يُقال له الصابيء . قالا : هو الذي تعنين فانطلقي . فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاهُ الحديث .

قال : فاستنزلوها عن بعيرها ، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين - أو السَّطيحتين - وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي[٣] ونُودي في الناس : اسقوا واستقوا . فسقى من شاء واستقى من شاء ، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء قال : اذهب فأفرغه عليك . وهي قائمة تنظرُ إلى ما يفعل بمائها . وايمُ الله لقد أقلع عنها وإنه ليُخيل إلينا أنها أشدُّ ملأة منها حين ابتدأ فيها .

فقال النبي ﷺ : اجمعوا لها . فجمعوا لها - من بين عجوة ودقيقة وسويقة - حتى جمعوا لها طعامًا ، فجعلوها في ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها ، قال لها : تعلمين مارَزِئْنا [٤]من مائك شيئًا ، ولكن الله هو الذي أسقانا .

فأتت أهلها وقد احتبست عنهم . قالوا : ماحبسك يافلانة ؟ قالت :

---

(١) المزادة قربة كبيرة يزاد فيها جلد من غيرها ، وتسمى سطيحة .

(٢) أي قومنا قد تخلفوا لطلب الماء .

(٣) جمع عزلاء وهي مصب الماء من القربة .

(٤) أي ما نقصْنا .

العَجَبُ، لقيني رجُلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ، ففعل كذا وكذا ، فو الله إنه لأسحرُ الناس من بين هذه وهذه - وقالت بإصبعيها والوُسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعني السماء والأرض- أو إنه لرسولُ الله حقًا . فكان المسلمون بعد ذلك يُغيرون على من حولها من المشركين ولايُصيبون الصِّرم [1] الذي هي منه. فقالت يومًا لقومها : ما أرى ؟ إنَّ هؤلاء القوم يدعونكم عَمداً[2]، فهل لكم في الإسلام ؟ فأطاعوها ، فدخلوا في الإسلام .

قال أبو عبد الله : صبأ خَرَجَ من دين إلى غيره .

وقال أبو العالية : الصابئين - وفي نسخة الصابئون - فرقةٌ من أهل الكتاب يقرءون الزَّبور [3] .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه وذكر نحوه [4] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : فيه مثل من أدب الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ حيث كانوا يلزمون الصمت والهدوء إذا كان نائمًا حتى لايوقظوه ، ولقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل هذا الشعور إلا أنه رأى ضرورة

---

(١) الصِّرْم الأبيات المجتمعة .

(٢) يعني : ما الذي أراه في أمر هؤلاء المسلمين ؟ إنهم يتركون قتالكم عمداً .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التيمم ، رقم ٣٤٤ ، وبيان ألفاظ الحديث مستفاد من شرح الحافظ ابن حجر (فتح الباري ١/ ٤٤٨ - ٤٥٤) .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، باب قضاء الفائتة (شرح النووي ٥/ ١٨٩-١٩٢) .

تنبيهه ﷺ للصلاة ، فكان التكبير أفضل وسيلة لإيقاظ النبي ﷺ مع الحفاظ على لزوم الأدب معه .

ثانيًا : فيه مثل من حياة الأمن الكامل والطمأنينة التامة عند المسلمين لغير الأعداء المحاربين ، فالمرأة المذكورة في الخبر قد واجهت جيشًا كبيرًا فظلت في حمايتهم وأمانهم ، بل نالت من رفدهم وعطائهم مع أنهم لم ينقصوها شيئًا من مائها ، وإذا كان الأعداء يعيشون بهذه الحياة الآمنة في وسط المسلمين فكيف بالأمن لأفراد المسلمين أنفسهم ؟ !

ثالثًا : في هذا الخبر مثل مما يتصف به المسلمون من خُلق الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم ولو بعد عهد طويل ، فهذه المرأة بسبب فضلها عليهم بذلك الماء ظل قومها آمنين في بلادهم من غزو المسلمين الذين كانوا يغيرون على من حولهم ، ولقد قادهم هذا الخلق النبيل من المسلمين إلى الدخول في الإسلام استجابة لدعوة تلك المرأة التي ذكَّرتهم بفضل المسلمين عليهم .

رابعًا : يشتمل هذا الخبر على بيان معجزة عظيمة للنبي ﷺ حيث نزلت البركة في ذلك الماء القليل حتى كفى جميع أفراد ذلك الجيش .

* * *

٢ - بيان النبي ﷺ لعدالة الإسلام -

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث طارق بن عبد الله المحاربي قال: رأيت رسول الله ﷺ مرَّ بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي، فمرَّ وعليه حلة حمراء، فسمعته يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه، وهو يقول: ياأيها الناس لاتطيعوا هذا فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ فقيل غلام من بني عبد المطلب.

فلما أظهر الله تعالى الإسلام خرجنا من الرَّبَذَة ومعنا ضعينة لنا[١] حتى نزلنا قريبا من المدينة، فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان فسلم علينا فقال: من أين القوم؟ فقلنا: من الربذة، ومعنا جمل أحمر فقال: تبيعوني هذا الجمل؟ فقلنا: نعم، فقال: بكَمْ؟ فقلنا: بكذا وكذا صاعًا من تمر، قال: أخذته وما استقْصَى[٢] فأخذ يخطام الجمل فذهب به حتى توارى في حيطان المدينة، فقال بعضنا لبعض: تعرفون الرجل؟ فلم يكن منا أحد يعرفه فلام القوم بعضهم بعضا فقالوا: تعطون جملكم من لاتعرفون! فقالت الضعينة: فلا تلاوموا فقد رأينا وجه رجل لايغدر بكم، ما رأيت شيئًا أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه.

فلما كان العشيّ أتانا رجل فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنتم الذين جئتم من الربذة؟ قلنا: نعم، قال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم، وهو يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر حتى تشبعوا

---

(١) أي أمرأة.

(٢) أي لم يطلب تخفيض الثمن.

وتكتالوا حتى تستوفوا ، فأكلنا من التمر حتى شبعنا واكتلنا حتى استوفينا ، ثم قدمنا المدينة من الغد فإذا رسول الله ﷺ قائم يخطب الناس على المنبر ، فسمعته يقول : يد المعطي العليا ، وابدأ بمن تعول ، أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك ، وثَمَّ[1] رجل من الأنصار فقال : يارسول الله هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين قتلوا فلانا في الجاهلية ، فخذ لنا بثأرنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه حتى رأيت بياض إبطيه فقال : لاتجني أمٌّ على ولد ، لاتجني أم على ولد .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي[2] .

ففي هذا الخبر يبين رسول الله ﷺ عدالة الإسلام في رفع الظلم والمنع من الاعتداء على الأبرياء ، وإقرار حياة الأمن ، وعدم أخذ الإنسان بذنب غيره ، فقد طلب ذلك الرجل الأنصاري من رسول الله ﷺ أن يمكِّن الأنصار من أخذ ثأرهم من قبيلة بني ثعلبة ، فلم يجبه إلى ذلك ، وبين له أن الأبرياء لايؤخذون بجريرة المعتدين .

وقوله ﷺ « لاتجني أم على ولد » تشبيه للقبيلة بالأم ، أي أن ماكان من فرد من أفراد القبيلة من الاعتداء يكون مسئولا عنه وحده ، ولاتسري الجريمة على جميع أفراد القبيلة .

وكان العرب في الجاهلية يأخذون بثأرهم من أي فرد من أفراد القبيلة المعتدية ، فكانوا لذلك يعيشون في رعب دائم فيما إذا اعتدى منهم أحد ،

---

(١) أي وكان في ذلك المكان .

(٢) المستدرك ٢/ ٦١١ - ٦١٢ .

فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادة الجاهلية الجائرة ، وأبدلها بالقصاص العادل ، حيث يؤخذ كل إنسان بذنبه ويعيش الأبرياء بطمأنينة وأمان .

* * *

٣ – موقفان لجُلَيْبيب وامرأته –

أخرج الإمام أحمد بإسناده من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه : أن جُلَيبيبًا كان من الأنصار ، وكان أصحاب النبي ﷺ إذا كان لأحدهم أيِّم لم يزوجها حتى يعلم أللنبي ﷺ فيها حاجة أم لا ، فقال رسول الله ﷺ ذات يوم لرجل من الأنصار : زوجني ابنتك ، فقال : نعم ونعمة عين ، فقال : إني لست لنفسي أريدها ، قال : فلمن ؟ قال : لجليبيب ، قال : حتى أستأمر أمها ، فأتاها فقال : إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك ، قالت : نَعَمْ ونعْمة عين ، زوج رسول الله ﷺ ، قال : إنه ليس يريدها لنفسه ، قالت : فلمن ؟ قال : لجليبيب ، قالت : حلقَى ، أجليبيب ؟! – مرتين – لا لعمر الله لا أزوج جليبيبا .

قال : فلما قام أبوها ليأتي النبي ﷺ قالت الفتاة لأمها من خدرها : من خطبني إليكما ؟ قالت : النبي ﷺ ، قالت : فتردون على النبي ﷺ أمره !! إدفعوني إلى النبي ﷺ فإنه لايضيعني ، فأتى أبوها النبي ﷺ فقال : شأنك بها ، فزوجها جليبيبا .

فبينما النبي ﷺ في مغزًى له وأفاء الله تبارك وتعالى عليه فقال رسول الله ﷺ : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلانا ونفقد فلانا فقال النبي ﷺ : لكني أفقد جليبيبا فانظروه في القتلى ، فنظروه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه ، قال : فوقف ﷺ فقال : قتل سبعة ثم قتلوه ! هذا مني وأنا منه ، ثم حمله رسول الله ﷺ على ساعديه ماله سرير غير ساعدي رسول الله ﷺ حتى حفر له ، ثم وضعه في لحده وماذكر غسلا[1] .

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٤٢٥ .

وأخرج الإمام مسلم آخر الخبر المتعلق بالغزو [1].

وقال الحافظ ابن حجر : جليبيب غير منسوب ، وذكر هذا الخبر [2].

في هذا الخبر موقف عظيم لرسول الله ﷺ حيث كان لا ينسى أصحابه رضي الله عنهم حتى المغمورين منهم الذين لايُؤْبَه بهم إذا حضروا ولايُفقَدون إذا غابوا ، فقد سأل ﷺ عمَّن استشهد من أصحابه وكان في باله « جليبيب » رضي الله عنه ، فلما لم يذكره أصحابه لعدم شهرته فيهم ذكره لهم وكلفهم بالبحث عنه ، فلما رأى آثار بذله طاقته وتضحيته بنفسه في سبيل الله تعالى أثنى عليه بذلك الثناء العظيم ، حيث حكم له بالاستقامة التامة على منهجه وأعلن الرضى عنه .

أما جليبيب فإن هذا الخبر يدل على شجاعته واستبساله في الدفاع عن الإسلام والمسلمين .

أما زوجته فإن هذا الخبر يدل على تقواها وصلاحها حيث آثرت رضي النبي ﷺ واختياره ، ولم تلتفت إلى مابينها وبين جليبيب من فارق النسب ، بل رضيت بما رضي لها رسول الله ﷺ من كفاءة الدين .

* * *

(١) صحيح مسلم ، رقم ٢٤٧٢ ، كتاب فضائل الصحابة (ص ١٩١٨) .

(٢) الإصابة رقم ١١٧٩ (١/ ٢٤٤) .

١٢ – موقف في الثبات والتضحية

(خبر حبيب بن زيد الأنصاري)

ذكر المؤرخ ابن الأثير في ترجمته أن رسول الله ﷺ أرسله إلى مسليمة الكذاب الحنفي صاحب اليمامة ، فكان مسيلمة إذا قال : أتَشْهَد أن محمدًا رسول الله ؟ قال : نعم ، وإذا قال له : أتشهد أني رسول الله؟ قال : أنا أصم لا أسمع ، ففعل ذلك مرارًا ، فقطَّعه مسيلمة عضوا عضوا، فمات شهيدًا رضي الله عنه (١) .

فهذا مثل عال في الثبات على الشدائد والتضحية بالنفس في سبيل الله تعالى .

ولقد كان مسيلمة عنيفًا جبارًا شاذا في سلوكه، حيث خالف جميع القوانين والأعراف السياسية المعروفة عند الدُّول والقبائل ، منْ أنَّ الرسل لاتُقتل ، وإمعانا منه في الجبروت والطغيان فإنه قطَّع جسد حبيب عضوا عضوا ليحصل منه على الاعتراف بنبوته ولو بهذه الطريقة العنيفة الشاذة، ولكن آماله تحطمت أمام ثبات حبيب الراسخ على دينه ، واستهانته البالغة بما دعاه إليه مسيلمة الكذاب .

* * *

---

(١) أسد الغابة ١/ ٣٧٠ ، وقد ذكر أن حبيب بن زيد من بني مازن بن النجار من الخزرج رضي الله عنه .

١٣ - مواقف دعوية في إسلام أهل اليمن -

كانت ولاية اليمن في عهد النبي ﷺ للأبناء وهم أبناء الفرس الذين قدموا لنصرة سيف بن ذي يزن على أمراء الحبشة الذين سيطروا على اليمن، وكان عامل كسرى على اليمن آنذاك « باذام » ، ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وذكر أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام، وأن كسرى مزّق الكتاب وكتب إلى « باذام » : أما بعد فإذا جاءك كتابي فابعث من قبَلك أميرين إلى هذا الرجل الذي بجزيرة العرب الذي يزعم أنه نبي، فابعثه إليَّ في جامعة[1] ، فلما جاء الكتاب إلى باذام بعث من عنده أميرين عاقلين وقال : اذهبا إلى هذا الرجل فانظروا ماهو، فإن كان كاذبا فخذاه في جامعة حتى تذهبا به إلى كسرى ، وإن كان غير ذلك فارجعا إليّ فأخبراني ماهو ، حتى أنظر في أمره ، فقدما على رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فوجداه على أسدِّ الأحوال وأرشدها[2]، ورأيا منه أمورًا عجيبة، يطول ذكرها ، ومكثا عنده شهرًا حتى بلَّغا ما جاءا له، ثم تقاضياه الجواب بعد ذلك ، فقال لهما : ارجعا إلى صاحبكما فأخبراه أن ربِّي قد قتل الليلةَ ربَّه ، فأرَّخا ذلك عندهما ثم رجعا سريعًا إلى اليمن فأخبرا باذام بما قال لهما فقال : أَحْصُوا تلك الليلة ، فإن ظهر الأمر كما قال فهو نبي ، فجاءت الكتب من عند ملكهم أنه قد قُتل كسرى في ليلة كذا وكذا ، لتلك الليلة .

وقام بالملك بعده ولده يزدجرد وكتب إلى باذام : أنْ خذ لي البيعة

---

(١) أي في قيد .

(٢) أسدّ الأحوال : من السداد وهو الرأي المصيب والحال الحسن .

من قبَلك ، واعمد إلى ذلك الرجل فلا تهنه وأكرمه ، فدخل الإسلام في قلب باذام وذريته من أبناء فارس ممن باليمن ، وبعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه ، فبعث إليه رسول الله ﷺ بنيابة اليمن بكمالها ، فلم يعزله عنها حتى مات ، فلما مات استناب ابنه شهر بن باذام على صنعاء وبعض مخاليف [1] ، وبعث طائفة من أصحابه نوابًا على مخاليف أخر ، فبعث أولاً في سنة عشر ، عليًا وخالدًا ، ثم أرسل معاذًا وأبا موسى الأشعري وفرق عمالة اليمن بين جماعة من الصحابة ، وبعث معاذ بن جبل معلمًا لأهل البلدين - اليمن وحضْرَمَوت - يتنقل من بلد إلى بلد . قال : ذكره سيف بن عمر ، وذلك كله في سنة عشر ، آخر حياة رسول الله ﷺ [2] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : ماكان من عامل كسرى على اليمن « باذام الديلمي » من الإسراع إلى الدخول في الإسلام لما تبين له أنه دين الحق بدون أن يدخل مع المسلمين في حرب ولاتعرض لتهديد بذلك ، وهذا يدل على تجرده من هوى النفس المنحرف ، ولقد كان إسلامه سببًا في اتجاه كثير من أهل اليمن إلى الإسلام .

ثانيًا : في هذا الخبر عبرة عظيمة ، وذلك في إخبار النبي ﷺ الرجلين المبعوثين من باذام بأن الله تعالى قد أهلك كسرى تلك الليلة ، فكان الأمر كما أخبر به ، وهذه معجزة بالغة ، وبسببها كان إسلام أمير اليمن باذام .

---

(١) أي بعض الأقاليم .

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٣١٠ - ٣١١ .

ثالثًا : مواقف للصحابة رضي الله عنهم في نشر الإسلام في اليمن، ومنهم علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري ، وقد كان لمعاذ أثر كبير في الدعوة والتعليم والتربية حيث لم يبق في مكان واحد وإنما كان يتنقل بين أقاليم اليمن وحضرموت .

* * *

١٤ - مواقف فدائية -
(القضاء على الأسود العنسي)

في أواخر حياة النبي ﷺ خرج عبهلة بن كعب المعروف بالأسود العنسي في اليمن وادَّعى النبوة ، وكان مخرجه من بلدة « كهف حنان» في سبعمائة مقاتل وكتب إلى عمال النبي ﷺ : أيها المتمردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفروا ماجمعتم فنحن أولى به ، ثم توجه إلى نجران فأخذها بعد عشر ليال ، ثم قصد إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذام [١] فتقاتلا فغلبه الأسود وقتله وكسر جيشه من الأبناء واحتل صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه .

وخرج معاذ بن جبل ومرَّ بأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فذهبا إلى حضْرَمَوت ، وانحاز عمال النبي ﷺ إلى الطاهر بن أبي هالة ، ورجع عمرو بن حرام وخالد بن سعيد بن العاص إلى المدينة ، واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسي [٢] .

وقد أخرج الإمام ابن جرير الطبري بإسناده عن جُشَيش بن الديلمي قال : قدم علينا وَبَرُ بن يُحَنّس بكتاب النبي ﷺ ، يأمرنا فيه بالقيام على ديننا ، والنهوض في الحرب ، والعمل في الأسْوَد : إمّا غيلة وإما مصادمة ، وأن نبلِّغ عنه من رأينا أن عنده نجدة ودينًا . فعملنا في ذلك ، فرأينا أمرًا كثيفًا ، ورأيناه في تغير لقيس بن عبد يغوث - وكان على جنده- فقلنا : يخاف على دمه ، فهو لأول دعوة ، فدعوناه وأنبأناه

(١) هو أحد عمال النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن .

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٣١٢ .

الشأنَ ، وأبلغناه عن النبي ﷺ ، فكأنما وقعنا عليه من السماء ، وكان في غمّ وضيق بأمره ، فأجابنا إلى ما أحببنا من ذلك . وجاءنا وبر بن يحنّس ، وكاتبْنا الناس ودعوناهم ، وأخبره الشيطان بشيء [1] ، فأرسل إلى قيس وقال : ياقيس ، مايقول هذا ؟ قال : ومايقول ؟ قال : يقول : عَمدت إلى قيس فأكرمته ، حتى إذا دخل منك كل مدخل ، وصار في العز مثلك ، مال ميل عدوك ، وحاول ملكك وأضمر على الغدر ! إنه يقول : يا أسود يا أسود ! ياسوءة ياسوءة ! اقطف قُنَّته ، وخذ من قيس أعلاه ، وإلا سلبك أو قطف قُنَّتك . فقال قيس - وحلف به - : كذب وذي الخمار [2] ، لأنت أعظمُ في نفسي وأجلُّ عندي من أن أحدِّث بك نفسي ، فقال : ما أجفاك ! أتكذب المَلَك ! قد صدق الملك ، وعرفت الآن أنك تائبٌ مما اطلع عليه منك .

ثم خرج فأتانا ، فقال : ياجُشيش ، ويافَيروز ، ويادادويه ، إنه قد قال وقلت ، فما الرأيُ ؟ فقلنا : نحن على حذر ، فإنا في ذلك ، إذ أرسل إلينا ، فقال : ألم أشرِّفكم على قومكم . ألم يبلغني عنكم ! فقلنا : أقلْنا مرَّتنا هذه ، فقال : لايبلغني عنكم فأقتلكم ، فنجونا ولم نكَدْ ، وهو في ارتياب من أمرنا وأمر قيس ، ونحن في ارتياب وعلى خطر عظيم ، إذ جاءنا اعتراض عامر بن شهر وذي زود وذي مُران وذي الكلاع وذي ظُليم عليه ، وكاتبونا وبذلوا لنا النَّصر ، وكاتبناهم وأمرناهم ألا يحركوا شيئًا حتى نُبرم الأمر - وإنما اهتاجوا لذلك حين جاء كتاب النبي ﷺ ، وكتب النبي ﷺ إلى أهل نجران ، إلى عربهم وساكني

---

(١) أي أخبر الأسود شيطانه وكان معه شيطان من الجن .

(٢) هذا لقب الأسود العنسي .

الأرض من غير العرب ، فثبتوا فتنحَّوا وانضموا إلى مكان واحد – وبلغه ذلك [1] ، وأحس بالهلاك .

وفَرَقَ لنا الرأيُ[2] . فدخلتُ على آذاد ، وهي امرأته ، فقلت : ياابنة عم ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك ، قَتَل زوجك ، وطأطأ في قومك القتل[3] ، وسفل بمن بقي منهم ، وفضح النساء ، فهل عندك من ممالأة عليه ! فقالت : على أي أمره ؟ قلت : إخراجه ، قالت : أو قتله ، قلت : أو قتله ، قالت : نعم والله ما خَلَق الله شخصًا أبغض إليَّ منه ، مايقوم لله على حق ، ولاينتهى له عن حُرمة ، فإذا عزمتم فأعلموني أخبركم بمأتَى هذا الأمر . فأخرجُ فإذا فيروز وداذويه ينتظراني ، وجاء قيس ونحن نريد أن نناهضه ، فقال له رجل قبل أن يجلس إلينا : المَلك يدعوك . فدخل في عشرة من مَذْحج وهَمْدان . فلم يقدر على قتله معهم .

إلى أن قال : فأرسلنا إلى قيس ، فجاءنا ، فأجمع ملؤهم أن أعود إلى المرأة فأخبرها بعزيمتنا لتخبرنا بما تأمر ، فأتيتُ المرأة وقلت : ماعندك؟ فقالت : هو متحرِّز متحرِّس ، وليس من القَصْر شيء إلا والحرسُ محيطون به غير هذا البيت ، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق ، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه ، فإنكم من دون الحرس ، وليس دون قتله شيء . وقالت : إنكم ستجدون فيه سراجًا وسلاحًا . فخرجتُ فتلقاني الأسود خارجًا من بعض منازله ، فقال لي . ما أدخلك عليّ؟

(١) أي بلغ الأسود العنسي .

(٢) أي ظهو واتضح .

(٣) أي أسرع فيهم بالقتل .

ووجأ رأسي حتى سقطتُ - وكان شديداً - وصاحت المرأة فأدهشته عنّي، ولولا ذلك لقتلني . وقالت : ابن عمتي جاءني زائراً ، فقصَّرْتَ بي! فقال : اسكتي لا أبالك . فقد وهبته لك ! فتزايلتْ عني .

فأتيت أصحابي فقلت : النَّجاء ! الهرب ! وأخبرتهم الخبر ، فإنا على ذلك حَيَارى إذ جاءني رسولُها : لاتَدَعَنَّ ما فارقْتُكَ عليه ، فإني لم أزلْ به حتى اطمأنّ ، فقلنا لفيروز : ائتها فتثبتْ منها ، فأما أنا فلا سبيل لي إلى الدخول بعد النَّهْي . ففعل ، وإذا هو كان أفطن مني ، فلما أخبرتُه قال [1] : وكيف ينبغي لنا أن ننقُب على بيوت مبطنة ! ينبغي لنا أن نقلع بطانة البيت ، فدخلا فاقتلعا البطانة ، ثم أغلقاه ، وجلس عندها كالزائر ، فدخل عليها الأسود فاستخفَّتْه غَيْرة ، وأخبرته برضاع وقرابة منها عنده محرم ، فصاح به وأخرجه .

وجاءنا بالخبر ، فلما أمسينا عملنا في أمرنا، وقد واطأنا أشياعُنا ، وعجلنا عن مراسلة الهمدانيّين والحميَريِّين ، فنقبنا البيت من خارج ، ثم دخلنا وفيه سراج تحت جفنة ، واتقينا بفيروز - وكان أنجدنا وأشدنا - فقلنا - انظر ماذا ترى ! فخرج ونحن بينه وبين الحرس معه في مقصورة ، فلما دنا من باب البيت سمع غطيطًا شديداً ، وإذا المرأة جالسة ، فلما قام على الباب أجلسه الشَّيْطان فكلّمه على لسانه ، وإنه ليغُطّ جالسًا . وقال أيضًا : مالي ولك يافيروز ! فخشيَ إن رجع أن يهلك وتهلك المرأة ، فعاجله فخالطه وهو مثل الجمل ، فأخذ برأسه فقتله ، فدقّ عنقه ، ووضع ركبته في ظهره فدقه ، ثم قام ليخرج ، فأخذت المرأة بثوبه وهي

(١) جاء في تاريخ الطبري « قالت » وهو غير منسجم مع سياق الكلام والصواب قال كما جاء في الكامل لابن الأثير - ٣ / ٢٢٩ - ٢٣٠ - .

ترى أنه لم يقتله ، فقالت : أين تَدعُني ! قال : أخبر أصحابي بمقتله ، فأتانا فقمنا معه ، فأردنا حز رأسه ، فحركه الشيطان فاضطرب فلم يضبطه ، فقلت : اجلسوا عَلَى صدره ، فجلس اثنان على صدره ، وأخذت المرأة بشعره ، وسمعنا بربرة [١] فألجمتُه بمِثلاة [٢] ، وأُمرَّ الشَّفْرة على حلْقه فخار كأشدّ خُوار ثور سمعته قطّ ، فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة فقالوا : ماهذا ، ماهذا ! فقالت المرأة : النبيّ يوحَى إليه! فخمد .

ثم سمرنا ليلتنا ونحن نأتمر كيف نخبرُ أشياعنا ، ليس غيرنا ثلاثتنا ، فيروز وداذويه وقيس [٣] ، فاجتمعنا على النداء بشعارنا الذي بيننا وبين أشياعنا ، ثم يُنادى بالأذان ، فلما طلع الفجر نادى داذويه بالشعار ، ففزع المسلمون والكافرون ، وتجمع الحرس فأحاطوا بنا ، ثم ناديت بالأذان ، وتوافت خيولُهم إلى الحرس ، فناديتهم : أشهدُ أنّ محمداً رسول الله ، وأن عَبْهلة كذاب ! وألقينا إليهم رأسه ، فأقام وَبَر الصلاة [٤] ، وشنّها القوم غارةً ، ونادينا : يا أهل صنعاء ، من دخل عليه داخل فتعلقوا به ، ومن كان عنده منهم أحد فتعلقوا به . ونادينا بمن في الطريق : تعلَّقوا بمن استطعتم ! فاختطفوا صبيانًا كثيرين ، وانتهبوا ما انتهبوا ، ثم مضوا خارجين ، فلما برزوا فقدوا منهم سبعين فارسًا ركبانًا ، وإذا أهل الدور والطرُق وقد وافونا بهم ، وفقدنا سبعمائة عَيِّل

---

(١) البربرة : الصياح .

(٢) المثلاة : الخرقة التي تمسكها المرأة عند النوح تشير بها .

(٣) يعني إضافة إلى راوي الخبر جشيش الديلمي .

(٤) يعني وَبَر بن يَحَنَّس الأزدي الذي قدم بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم .

فراسلونا وراسلناهم أن يتركُوا لنا ما في أيديهم ، ونترك لهم مافي أيدينا ، ففعلوا فخرجوا لم يظفرُوا منّا بشيء ، فترددّوا فيما بين صنعاء ونجران ، وخلصت صنعاء والجَنَد ، وأعزّ الله الإسلام وأهله ، وتنافسنا الإمارة ، وتراجع أصحابُ النبي ﷺ إلى أعمالهم ، فاصطلحنا على معاذ بن جبل ، فكان يصلي بنا ، وكتبنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ، وذلك في حياة النبي ﷺ . فأتاه الخبر من ليلته ، وقدمت رُسُلنا ، وقد مات النبي ﷺ صبيحة تلك الليلة ، فأجابنا أبو بكر رحمه الله .

وأخرج الإمام الطبري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال : أتى الخبرُ النبيَّ ﷺ من السماء الليلة التي قتل فيها العَنْسيُّ ليبشِّرنا ، فقال : قُتل العنسيّ البارحةَ ، قتله رجلٌ مباركٌ من أهل بيت مباركين، قيل : ومن هو ؟ قال : فيروز ، فاز فيروز !

وأخرج أيضًا من حديث فيروز الديلمي قال: قتلْنا الأسود ، وعاد أمرنا كما كان ، إلا أنا أرسلْنا إلى مُعاذ ، فتراضينا عليه ، فكان يصلِّي بنا في صنعاء ، فو الله ما صلَّى بنا إلا ثلاثة ونحن راجون مؤمّلون ، لم يبق شيء نكرهه إلا ما كان من تلك الخيول التي تردَّد بيننا وبين نجران، حتى أتانا الخبر بوفاة رسول الله ﷺ ، فانتقضت الأمور ، وأنكرنا كثيراً مما كنّا نعرف، واضطربت الأرض (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : ماجرى من هؤلاء الذين استجابوا لدعوة النبي ﷺ في

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٣١ - ٢٣٦ ، وذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمام الطبري - البداية والنهاية ٦/ ٣١٢ - ٣١٤ - .

محاربة الأسود العنسي والقضاء عليه مع خطورة هذا الأمر ، ومنهم جُشَيش وفيروز وداذويه وآذاد امرأة شهر بن باذام ، وهم من أبناء الفرس، وقيس بن عبد يغوث الذي كان قائد جند الأسود العنسي، وأهل نجران الذين ثبتوا واجتمعوا استعدادًا لحرب الأسود العنسي .

وقد تبين من الخبر التخطيط المحكم الذي دبره فيروز الديلمي ومن معه لقتل الأسود ، ويظهر في هذا العمل شجاعة فيروز وجسارته حيث أقدم على قتل رجل يحرسه شيطانه ، وقد حاز بذلك على ثناء النبي ﷺ عليه ، كما يبرز دور آذاد امرأة شهر حيث شجعت على هذا الأمر ودبرت الخطة لدخول فيروز وأصحابه .

ثانيًا : في هذا الخبر عبرة جليلة وذلك بوصول خبر مقتل الأسود العنسي إلى رسول الله ﷺ ليلة مقتله عن طريق الوحي، وهذه معجزة له ﷺ حصل بها اطمئنانه على زوال فتنة ذلك المتنبئ الكذاب قبل أن يفارق الحياة .

ثالثًا : دور معاذ بن جبل رضي الله عنه الكبير في جمع الشمل والإصلاح بين الإخوة الذين تنافسوا على الإمارة حيث وجدوا أنه أصلح رجل لتولي أمر المسلمين في اليمن ، لكونه صحابيًا ولما يتمتع به من العلم الراسخ والعقل الوافر والرأي السديد والخلق الحسن، وبهذا دفع الله به ما يحتمل أن يكون من فتنة بين زعماء المسلمين في اليمن .

* * *

تم الجزء الثامن ويليه الجزء التاسع

وهو الجزء الأول من عهد الخلفاء الراشدين

الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة